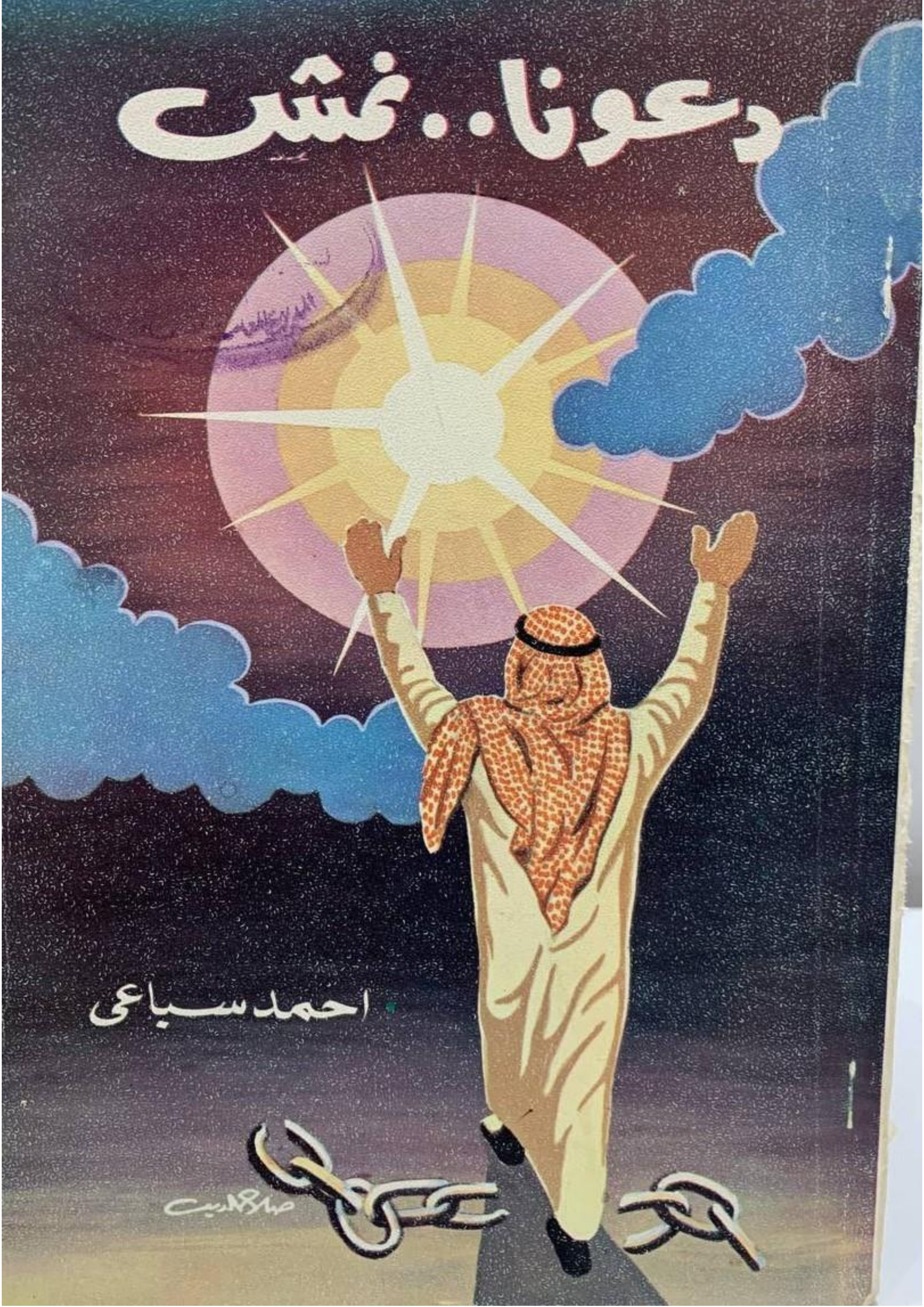

دعونا.. نمشي
احمد سباعي
صلاح الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ ..(الفتح: 29)

صدق الله العظيم

دعونا نمشِ

مضت قوافل الأمم تمشي نحو أهدافها في الحياة، فما يمنعنا أن نساير القوافل؟ وما يمنعنا أن نمضي وقد أشرق الصباح.

إننا نعاني أمراضاً مزمنة تأصلت أدواؤها في أعماقنا من ألف سنة فليس من اليسير السهل أن نتخلّص من كل أدوائنا طفرة واحدة، ولكنه ليس من العسير كذلك أن نلتمس العلاج الذري في عهد تيسرت فيه جميع الإمكانيات، وأصبح من المستحيل فيه أن نتعلل بذكر المستحيل!!

وأدواؤنا على كثرتها وتنوع أصولها يمكن تصنيفها في فصول محدودة إذا أردنا التحديد والاستيعاب، ويمكننا مباشرة علاجها في ضوء هذا التصنيف، فصلاً بعد فصل. إذا صَدَقنا النية وأخلصنا العزم.

لنبدأ ببيوتنا فبين جدراننا تدرج فلذات أكبادنا في مدالج لا تهيِّئهم للآمال التي نعقدها على رؤوسهم.

–يا حبوبتي! يا بنتي!! تعالي هنا يا قمر 14 يا بنتي!

أتدرون ما ابنتها هذه؟؟

لعلّكم تحسبونها فتاة، رقَّت أعطافها، ودقَّت أطرافها، ودار القمر في وجهها الفاتن!

لو كان الأمر كذلك لهان الخطب.. ولكن حبّوبتها هذه هي ولدها.. ولدها الذكر بكل ما في الذكورة من جفاف!!

إنها تريد أن تدلِّلَهُ، فلا يكفي أن تسمّيه حبيبها، بل تأبى إلاّ أن تؤنِّثه: حبوبتي!! ثم لا يُرضيها إلاّ أن تردف: يا بنيتي.. كأنها تخشى ألاّ تتأكد معاني الأنوثة بغير هذا الترادف.

هذه خسارة لا تعوضها الأُمة في فتاها الحبوب.. أو الحبوبة إذا تحرينا تصحيح العبارة الواردة.

داست أمه من حيث لا تشعر على رجولته المبكرة، وأوحت إليه بجميع المعاني التي تتنافى مع النضج، فإذا به وقد استوى مائعاً، سائل الأعطاف، ضعيفاً عن مواجهة الحياة.. فلا تثريب عليه لأنه (حبيب أمه.. أو حبوبتها المدلع).

وليس في الأمم الناهضة أم تدلل ابنها بمثل هذه المعاني المائعة.. لأنهم يتحاشون الإساءة إلى رجولته، ويأبون إلاّ أن يحاولوا بناء أطفالهم بأساليب فيها من مظاهر القوة والبأس أكثر ممّا فيها من معانٍ أخرى ..((بكرة تسير عسكري.. وريني كيف تحط البندقية.. إرفع صدرك يا شاطر.. أيوه كمان إضرب برجلك، وامشِ زي ما يمشوا الضباط.. بكرة أشتري لك بدلة طيار؛ وأعلق لك النياشين!!)).

مثل هذه المعاني توحي إليه الكثير من حقائق الرجولة؛ وتبث في روحه ألواناً من البأس والقوة، وتساعد على تنشئته محكم البنيان متين القواعد؛ وتعده إعداداً ممتازاً لمواجهة الحياة.

وإذا عدنا مرة أخرى إلى طفلنا الحبّوب!! (حبيب أمه)، رأيناها لا تكتفي بإعداده المائع الذي أسلفناه، حتى تحوطه بالكثير من دلالها الفاشل :((صمد راسك يا واد من البرد!! زرر صدرك يا حبيبي لا يصفقك الهوا!! لا تمشِ في الظلام يا واد.. خذ الفانوس في يدك!! بطِّل الكورة لا تعوِّر رجلك! غط راسك من الشمس لا تصرعك!!)) مع آلاف من أمثال هذه النصائح التي لا يوفيها حصر، ولا يحصرها عد. تنثال في معانيها إلى واعيته الخفية، فتترك أثرها الذي لا يمحى مع الأيام.. فينشأ ضعيفاً أمام البرد، هياباً من الشمس، يخاف الظلام ويتخيل وراءه الأهوال، ولا يجرؤ على الحركة النشيطة التي تجدِّد الدم وتدفعه قوياً في شرايينه.

إذا تعود الطفل هذا نشأ عليلاً تذوي نضارته الشمس، ويسيء مرور الهواء إلى صحته. وشب خاملاً لا تستخفه فكرة، ولا تغريه حركة، ودرج على الأوهام التي تتسع آفاقها للعفاريت والأشباح، وتضيق عن تصوير الأشياء بحقائقها المجردة.

فإذا رأيتني اليوم رتيباً أميل إلى الدعة، وأخلد إلى السكون في حدود وظيفتي، أو على مقعد دكاني الوثير، أو في ظل دهليز قصري؛ لا يستخفني تجديد، ولا أجرؤ على الحركة فيما يخرج عن نطاقي، ولا يتسع ذهني لغير ما ألفت في أفقي..

إذا رأيتني على مثل هذه الوتيرة، ورأيت غيري من الناهضين في الحياة يتكلّف الصعاب في سن ضاحك، ويجوب الآفاق إلى ما وراء المجاهل دون

أن يهاب الحر أو يبالي بالقر.. ورأيته يقحم حياته في أشد الزوايا ظلاماً، ويمتحن كفاءته في أكثر الأمور غموضاً، لا يتعلل بفانوس أو شمعة، ولا يخشى على رِجله أن ترتطم..

إذا رأيتني كما أسلفت، ففتش عما تحت أثوابي.. إنك ستجد أمي، وستسمع صوتها يهيب بي :((وه يا ولدي، وه يا حبيبي.. صمد رأسك من البرد.. زرر صدرك من الهوا.. لا تمشِ في الظلام قبل ما تاخذ الفانوس.. بطِّل الكورة لا تعوِّر رجلك)).

وإذا رأيت صاحبي الناهض فيما رأيت، فتطلَّع خلفه لترى أمه، وتسمع صوتها يدوي :((ارفع صدرك يا شاطر.. أيوه كمان اضرب رجلك)) ..ألا فليهنأ بصدره المرفوع، ورجله الضاربة.. وألف رحمة لرأسي المصمَّد وصدري المزرَّر!!

ولم تقتصر أمي على صيانتي من الحر والبرد، وحيازتي بعيداً عن مناطق الظلام المجهولة، بل تفضلت المسكينة فغذت خيالي بمئات القصص التي تمثِّل البعبع، وهول الليل، والدجيرة، في أساليب أخّاذة، وصور مثيرة تركت أثرها في نفسي.

فإذا رأيتني اليوم أتخيّل البعبع وراء كل خطوة لم أتعودها، وأخشى أن يفاجئني الهول مختبئاً خلف كل فكرة أرتادها في شؤون حياتي، ورأيتني أتصور الدجيرة آلاف الصور كلما غشيتني غاشية من صعاب الأمور ومدلهماتها..

وبالجملة.. إذا رأيتني اليوم أتردد في المواطن التي يعوزها الإقدام، وينتابني الوجل في كل خطوة أخطوها إلى ما لا أعرف..

وإذا رأيتني لا أطمئن إلاّ إلى ما اطمأنت إليه أمي قبلي..

فثق أنني لا أستحق لومك.. لأن حياتي لا تزيد في نظر الفلسفة الصحيحة عن كونها امتداداً طبيعياً لحياة أمي!!

فهل يرضينا اليوم ونحن على أبواب نهضة جديدة أن ننشئ أبناءنا مثل هذه النشأة العقيمة؟

إننا إذاً لغافلون.

نريد يا سيداتي الأمهات أن ننشئ أولادنا أقوياء أمام الشمس، أشداء في مواجهة العواصف، لا يثنيهم ضعف عن أشد الحركات عنفاً، ولا يخيفهم وهم في أحلك المناطق ظلاماً، وأبعد الأمور غموضاً.

نريدهم ليكونوا رجالاً بكل ما في معنى الرجولة من نضج واستواء. لتقوى سواعدهم على بناء المجد الذي نتمناه!!

فانهضوا للفكرة.. ودعونا.. نمشِ!!

ولَوْ زرعُوا التفاح في طشت الغسيْل

لدينا الفتى العنيد، والفتى المغرور، والفتى المشاكس.. وما أشقى بلادنا بهذه الألوان الثلاثة في أمتنا:

((الواد دحماني قام من النوم الساعة 6 نص الليل مشتهي التفاح)).

أين هذا التفاح في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل؟ شيء لا يفهمه الولد، أو لا يريد أن يفهمه، لأن وسيلته في إحضار التفاح، أو ما هو أهم من التفاح، لا تكلفه إلاّ أن يبكي!! ويبكي بإصرار حتى يقلق البيت ومن في البيت!!

–((يا ولد دحين فين نلتقي التفاح!! طيب والله العظيم أشتري لك التفاح من ساعة نصبح بس اسكت!!)).

ولكن الولد لا يريد أن يسكت.. لأنه لا بد من التفاح ولو زرعوه الساعة في طشت الغسيل!!

هذا (دحماني). أمّا (حمتو) فأمره ألطف..

إنه استيقظ يبكي.

–أبويه.. شيلني على كتفك.

–يا ولدي ارقد.. أنا تعبان.

–لأ.. شيلني.

((ولأ.. شيلني..)) كلمة لا يعني الصبي منها إلاّ أن أباه يجب أن (يشيله) على كتفه، ويقف به الساعة أو الساعتين، حتى يسبقه النعاس، فيوسده

أبوه الأرض في هدوء الخائف، الذي يخشى أن يعود إلى اليقظة، فيستأنف الوقوف (والشيل).!!

أيستطيع أبو (حمتو) أن يعصي ولده فيما طلب؟ أو يستطيع أبو (دحماني) أن يهاود في إحضار التفاح؟

أبداً.. إنهما لا يستطيعان ذلك لأن (المحافيض) (الله يخليهم) أولاد معاندون!!

من أين جاء هذا العناد؟؟

أولدوا به يوم ولدوا؟

–كلا! وإنما هي تصرفات البيت هيأتهم لهذا العناد وعلَّمتهم إياه.

إن تساهل الوالدين فيما يجب بالنسبة لابنهما.. كالشدة العاتية في معاملاته.. كلاهما مدعاة لسوء التربية وفسادها.

هناك حد وسط يجب أن يقف الوالدان على كثب منه ليحزما أمور الصبي، فلا يحرمانه في غلظة وقسوة، ولا يجاريان رغباته في خور وضعف.

إن قسوة الوالدين تطبعه على احترام الطغيان، والطغيان وحده!! وبذلك نُعده إعداداً مهيناً، ونعلمه ألاّ يسلس إلاّ لمن يركب عنقه بالعصا.. وبذلك نُفقد فيه غداً كرامته، واستقلاله الذاتي.

وإن مجاراة الوالدين لرغبات الطفل في خور وضعف تدربه على العناد، وتعلمه الإصرار على ما يعتقد أو يرى.. إصراراً لا يثنيه إقناع، ولا تحد من شأنه محاولة.. وبذلك نُعده للاستعباد، ونهيئه ليكون وبالاً على نفسه

وأمته.. فالأمم لا تمتحن بشيء كما تمتحن بالعنيدين من رجالها، والمستبدين بآرائهم في صفوفها.

والوالدان بعد هذا يستطيعان أن يمنحا أمتهما رجالاً لهم قيمتهم في المروءة، والنبل، والسمو الإنساني، إذا استطاعا أن يعاملاهم بمثل هذه الخصال، ويتركاهم يفهمون مواقع معانيها فيمن يعاملون.. كما أن في استطاعتهما أن يُزوِّدا أمتهم بالمتمردين، والطغاة، والمجرمين إذا اشتطا فيما يعاملان به أبناءهما، وتركاهم يفهمون أن ضعفهم عرضهم لظلم الآباء وقسوتهم.

إن الطفل الذي يدرج في أغلال غليظة من الامتهان يصور له خياله المحدود أن الحياة لمن غلب، فلا ينفك يستجمع قواه في سكون حتى إذا شعر بما توافر له من هذه القوى صبها على أول من يصادفه.. إنساناً أو حشرة.. ويستمرئ هذا على مر الأيام، ثم يألفه بالتدريج حتى يتأصل في أعماق نفسه.. فلا غرابة إذا بليت أمته به غداً طاغية أو مجرماً!!

ثم لا تنتظر بعد أن يتأصل الداء أن تُجديه مواعظك، أو تنفعه نصائحك، أو تردعه عقوبتك.. مهما يكن شأو ذلك، لأن العقدة قد باتت موثقة.. لا تحلها جميع الوسائل إلاّ وسيلة واحدة، لعلّه يوفق فيها شخص واحد، يتمثل في طبيب نفساني، يدرس في استقراء وتبصر حقيقة العقدة، ثم يناقش في أسبابها، حتى تنقشع الغشاوة عن فتانا، ويتبين وجه الخطأ فيما عقد.. وعند ذاك يبدأ الحل وتشرع أعمال الإنقاذ.

هذه حقائق أقرتها أحدث النظريات في التربية، فهل نعقلها اليوم ونحن على أبواب نهضة جديدة؟ أم نقنع بها بما جربه المتحضرون من أرقى الأمم وأوسعهم ثقافة ومعرفة؟

والطفل في سنه المبكرة لا ينفعه شيء ما تنفعه التجارب التي نصطنعها له ليلمس حقائقها بيده، فإن مثل هذه التجارب الصغيرة تهيئه لفهم النتائج في حدود ما يعقل، وتعلمه كيف يتقي شرها بدافع من غريزته.

وإذا رأيت يا سيدتي –الأم– ولدك يأبى إلاّ أن يتسلق الكرسي، فلا تنهريه كثيراً، بل دعيه يتسلق كما شاء، وافرحي لوقوعه إذا وقع، ما دام الوقوع لا يكسر رجله ولا يهشم عظمه.. ثم لا يرعك إذا تألم أو بكى، فإنها آلام محدودة، وبكاء صبياني لا بد منه. وحاذري إذا رأيته يبكي أن تمعني في تأنيبه أو وعظه.. بل اتركيه لما جرب، ودعيه يأخذ حظه مما وقع، وثقي تماماً أن عقله المحدود سيربط الحادثة الصغيرة بمسبباتها، وأن غريزته في المحافظة على النفس ستقوم قيام المؤدب الناجع أكثر ممّا يقوم التأنيب وإرسال نصائحك المملولة.

حدثت سيدة أجنبية من المتخصصات في علوم التربية عن نفسها فقالت:

كان (جيمي) وهو في السابعة يأبى دائماً أن يأوي إلى فراشه مبكراً، فتركته ذات ليلة يسهر كما يشتهي على شريطة أن يستيقظ كالمعتاد في الساعة الثامنة صباحاً، فجعل يستمع آونة إلى الراديو، ويلعب مع أخته أو يقرأ في كتابه آونة أخرى.. ودقت الساعة التاسعة وهو يجهد ألا يغمض أجفانه..

كان يريد أن يستمع قليلاً إلى الموسيقى.. ولكن ما حانت الساعة التاسعة والربع حتى كان مستغرقاً في النوم فحملناه إلى فراشه.. وفي صباح اليوم التالي ناديناه مراراً، فلم يستيقظ، وأخيراً جررناه جراً من الفراش وهو يقول :((لم أنم بعد ما يكفيني)) فلما عاد من المدرسة في ذلك اليوم استلقى ونام بدلاً من أن يخرج للعب.. ولما حان وقت النوم في المساء لم أقل له شيئاً، فذهب إلى غرفته، وخلع ملابسه، وقال :((لست أشعر بحاجة إلى النوم. ولكن يحسن بي ألاّ أعدو الساعة الثامنة، لأني لم أكن على ما يرام هذا اليوم)).

إلى أن قالت السيدة: وهكذا.. فبعض التجارب الصغيرة التي لا خطر منها، كثيراً ما تفيد الطفل ووالديه!!

وأقول بعد هذا: إن مثل هذه التجارب خليقة بأن تمرنه على الاستنتاج في حدود عقليته الصغيرة. فمرحى للأمة التي مرن صغارها على الاستنتاج الذي تنمو ملكته كلما نمت مداركهم في الحياة.

عرّجوا بنا نجرب هذا..

ودعونا.. نمشِ.

الواد عزّوز في شغل عن أرقامك

أجدني خصصت الأطفال بالكثير، فأطلت فيما يخصهم، وليس غريباً أن أخصهم فأطيل؛ لأن هذه الأرواح الصغيرة قمينة بعنايتنا، لتتهيأ في سنها المبكرة للاضطلاع بأعبائنا غداً.. تتهيأ في أسلوب خاص يغنينا في شبابها عن الصقل والتحوير، فالغصن اللدن هو الغصن القابل للتكييف في غير عناء أو مشقة.

ولقد عنى الرومان قبلنا بهذه النظرية، فكانوا يحرصون على أسر أكبر عدد من أطفال أعدائهم في الحروب ليحلوهم إلى منظمة خاصة تتولى تنشئتهم في أسلوب مقرر، يفصلهم عن ماضيهم فصلاً باتاً، ويُعِدهم لخدمة الدولة بروح الابن البار الذي أنتجته أيدٍ ماهرة، وتعهدت تقويمه في شكل خاص.

وقلّد العثمانيون الرومان في الانتفاع بهذه النظرية فكان لهم جيش من صغار الأسرى، ينظمون تربيته على أسلوبهم الخاص ليعتمدوه في مهامهم الخطيرة، ومواقفهم الحاسمة.. ولقد أثبت هذا الجيش في أحلك الأوقات الصعبة أن بنيانه كان محكم الأساس، وأن نظم التربية التي اعتُمدت لإعداده هيأت منه رجالاً متفانين في شكل منقطع النظير.. ذلك هو جيش الانكشارية المعروف في تاريخ العثمانيين ببأسه النادر وإخلاصه الفذ.

وانتقلت النظرية إلى بعض دول أوروبا وأمريكا مع تحوير يؤهلها لاتساع الفائدة، فكان ولا يزال بعضها يرصد في موازنته أضخم المبالغ لبناء المدارس

والكليات في مناطق بعيدة عن حدود بلادها باسم العلوم مرة وخدمة الإنسانية أخرى.

ونحن لا نناقش مبلغ هذه الدعاوى من الصدق بقدر ما نناقش المقاصد البعيدة التي تخدمها هذه المدارس، فقد هيأت في طُلبتها أرواحاً تُعِدهم إعداداً خاصاً لا تُعِده آلاف الوسائل المستعملة في السياسة.

ولقد كنا نرى آثار ذلك واضحة في كثير من المناسبات التي رأينا فيها خريجي تلك المدارس أو المعاهد يتفانون في خدمة الدول المربية ويفكرون بأفكارها، ويتحمسون لمصالحها حماساً يضاهي حماس أبناء الدول المربية في صميم بلادها.

نريد أن نخلص من هذا إلى أن الدول الراقية أدركت قبلنا مبلغ أثر المدارس في تنشئة الصغار، فأعدت نظمها إعداداً يكفل غاية خاصة تتوخاها.

فهل أعددنا مدارسنا هذا الإعداد؟ وهل هيأنا مناهجها لتبث في جيلنا فكرة محدودة نتوخاها في الحياة؟ وهل انتهى إلى علم أساتذتنا في المدارس أن وظائفهم في فصولنا إعداد وتهيئة قبل أن تكون شيئاً آخر؟

إننا اليوم أحوج ما نكون إلى مدارس تُعنى بالكيفية أكثر مما تُعنى بالكم. فلا المقرر السنوي، ولا المواد المفيدة، ولا الكتب المحدودة هي غاية التعليم في المدارس، إنما الغاية الأولى هي شيء أبعد من هذا وأغزر.

إننا نريد مران صغارنا على الفهم والاستنتاج أكثر مما نريدهم لنلقي ما نلقنهم كقواعد ثابتة وعلوم مقررة.

هذا الشيخ محمد يبدأ حصته في الدرس بقراءة أكثر مما أورده الكتاب المقرر في شأن قيام دولة العباسيين بالصورة التي قامت بها ويذكر تاريخ خطواتها باليوم والسنة.

ثم يتلو ما ترتب على هذا القيام في ألفاظ ميتة رصفت حروفها المطبعة كما كتبها المؤلف لتكون أرقاماً وعلامات لرائدي الموضوع.. لا لتكون حروفاً يمل الطالب استظهارها ويتعب من قيودها.

ما أحرى الشيخ محمد أن ينسى الكتاب إلى حين، وأن يناقشهم في الأسباب التي قضت على الأمويين.. ثم يتركهم يستنتجون ما يجب أن يترتب على سقوط الأمويين بعد أن يشعرهم بمكان الجماعة التي أسمت نفسها بالعبّاسيين ليصور الخطوط الأولى التي يجب في رأيهم أن تتجمع لتكون نهضة جديدة على أنقاض ما سبقها.

إذا تركهم يجمعون هذه الخطوط ويستعملون خيالهم في ترتيبها كيفما اتفق ويعدون العدة حسبما تراءى لهم لقيام الحكومة الجديدة.. فإن آراءهم ستتضارب في هذا الإعداد، وستتسع خيالاتهم في تصوير الموقف. وسوف لا يجيدون حبك القصة التي لم يطلعوا على نتائجها. ولكنهم سيتمرنون في هذا على النقاش، ويتدربون على الاستنتاج وستتَّسِع أذهانهم لتصوير

الحقائق، وتتفتق أفهامهم على بحث المقدمات في الحياة وترتيب النتائج عليها.

سنتركهم يخطئون ما اتسع الخيال لأخطائهم، لأننا سنظفر لهم من خلال هذه الأخطاء بما لا تساويه جميع دروس التاريخ، وسنشوقهم إلى نتائج ينتظرون سماعها منا، أو من الكتاب بفارغ الصبر.

وعندئذ فقط نستطيع أن نقرأ عليهم ما قال الكتاب لنحدد الفكرة في نطاق ما حدَّث به التاريخ، ونتركهم يعجبون للمفارقات العجيبة بين ما تخيلوه في شأن العباسيين، وما وقع عملياً في التاريخ.. وسنسمعهم يضحكون أشد الضحك من إغراق بعضهم فيما تخيل أو تصوره فيما تصور.. وسنفرح لهذا الضحك ما وسعنا الفرح لأن تفتق الأذهان وتمرينها وقْف على مثل هذه الأجواء المرحة، المشبعة بفكاهة المفارقات اللذيذة ما دام المرح محدوداً بيقظة الأستاذ وكفاءته الشخصية.

وننتقل بعد هذا إلى حصة الشيخ داود لتراه إلى جانب سبورته ينظم الأرقام الحسابية في سطور مرتبة يعلمهم فيها كيفية الجمع والطرح.

إنها يا سيدي الشيخ أرقام صامتة لا تنطق وإن الواد عزوز ومسعد وسعيد في شغل شاغل عن أرقامك بعبثهم الشيطاني الذي اصطنعوه ليبددوا سأم الحصة، وإن عجزك –وأرجو أن تسامحني فيما أقول– عن (فرفشتهم) واستغلال انتباههم هو المسؤول الأول عن انصراف الأولاد عن السبورة، وهو المسؤول الأخير عن إغلاق ذهنهم عن الحساب لا في عامهم الدراسي

فقط بل إلى عهد طويل من عهود تلمذتهم، لأن أذهانهم التي أغلقت اليوم دون دروسك البدائية ستظل مغلقة في مآتي أيامهم كما تتركها اليوم.

أيسمح لي سيدي الشيخ لأنوب عنه لحصة واحدة.

((قم يا عزوز: أنت اشتريت سكر بمبلغ 13 قرشاً، واشتريت بمبلغ 9 قروش شاي واشتريت كاكولة بمبلغ 7 قروش تقدر تفهمني كم ضيعت؟)).

هذه عملية حية ليس فيها أرقام صامتة يجب أن نبدأها قبل أن نبدأ الأرقام الصامتة.. إنها عملية من صميم واقع الطفل اليومي يستطيع أن يجاريك فيها، وأن يمشي وراء خطواتك إليها في صدر مشروح ويقظة كاملة.

وإذا استطعت أن تضيف إليها بعض الفكاهة كأن تقول: ثم رأيت البدوي يلاعب القرد في صور مضحكة تمثلها ولو بيديك. ثم تقول: وقد أعطيت هذا البدوي قرشين فكم مجموع ما صرفت؟.. عند ذاك ستجد الولد قد تفرغ لفكاهتك الظريفة وحدد انتباهه لما تقول.. وعندئذ ستجد أنك استطعت أن تملك انتباه التلاميذ في عموم الفصل، واستطعت أن تحبب إليهم دروسك وتشوقهم إلى متابعتك فيها.

كما ستجد نفسك وقد استطعت أن تفتّق أذهانهم لفهم ما تقرره عليهم، وتستطيع إذا غالطتهم في مرح أن تسر أفئدتهم، وأن تمرنهم على مناقشة الحقائق، ومراجعتها وتدريبها على الاستنتاج الفكري المستقل.. وبذلك سوف لا تضمن نجاح دروسك فقط بل تستطيع أن تضمن تعشقهم للحساب كفن مدى حياتهم، وأن تفاخر بعد هذا أنك لم تعن بمقرراتك في

علم الأرقام بقدر ما عنيت بتمرينهم على الاستقلال الفكري.. وتلك ضالة المدارس الأولى في حياة شعب يريد أن يواجه الحياة في قوة وعزم..

فدعونا.. نمشِ.

تضج الحيَاة اليومَ بالحديد والنار

لا يكفي الأمم أن يمتاز قوادها أو أصحاب زعامتها، أو فريق من المتقدمين فيها بالروح الواعية التي تحس بحقيقتها، بل لا بد لهذه الروح أن تنبعث في كيان الأمة، ويشيع أثرها في جميع الأوساط لتتضافر الجهود، ويجد المصلحون استجابة عامة أينما اتجهوا، وكيفما توجهوا. أما الأمة المتأخرة في مجموعها.. فإن محاولة إصلاحها إرهاق يبدد جهود العاملين، وربما بعث اليأس إلى نشاط الداعين.

وانتشار التعليم في صفوف الأمة بصورة شاملة عامة هو الكفيل الوحيد بشيوع الروح التقدمية في مختلف أوساطها لأن طبقة الأميين لا تستجيب دائماً لإصلاحات المفكرين، ولا تهضم الآراء الحرة التي يدعو إليها التقدميون.. وهي إلى هذا أشد ما تكون حرصاً على ما ألفت من عادات مهما كان نوعها أو نصيبها من التأخر.

أدركت هذا دول أوروبا.. فأشاعت التعليم في صورة كانت لا تحلم بها القرون الماضية.. بنت في كل قرية أكثر من مدرسة، وأنشأت في كل قسم من أقسام المدن، وفي كل عطفة من عطفاتها، دوراً للتعليم، ولم تقصر عنايتها على التعليم الأولي أو الثانوي بل شملت بجهودها جميع درجاته المتفاوتة ابتداءً من الروضة إلى آخر ذروة في أنواع التخصص العالي.

ولم تحرم المسجونين في أي درجات السجن، والمتشردين، ونزلاء الملاجئ، وأصحاب العاهات، والعميان، والمشوَّهين من فضل العلم.. أباحت لكل

فريق حصته الوافية من مناهل المعرفة، ولم تعجز حتى عن تنوير العميان والبكم، فابتكرت لهم ما يعينهم على تذوق العلم، وساعدتهم على اللحاق بصفوف أترابهم في الحياة.. فشاعت المعرفة بين طبقات الأمم واستطاع مجموعها أن يتقارب ثقافياً وذهنياً. واستطاعت المعرفة أن توحِّد بين طبقات الأمة الواحدة في أسلوب الفكر، وأن تعدها إعداداً جماعياً لتلقّي الآراء الحرة، والأفكار الجديدة، وأن تشعر شعوراً جماعياً بحاجتها إلى التضامن في سبيل ما يرفع شأنها ويعزز مكانتها.

ونحن على أبواب نهضتنا اليوم نلمس هذه المعاني في كل حركة نخطوها.. لا زلنا نعاني عصيان الطبقات غير المتعلمة على كل ما يجد لدينا من أفكار، ولا زلنا نقاسي عنْتهم، وشدة محافظتهم على ما ألِفوا.. وليس هذا غريباً على أذهان لم تفتّقها المعرفة، ولم ينوِّرها العلم.

لا يزال يعيش بيننا اليوم من يرى أن الأوروبيين خدم هيأهم الله لنمتطيهم إلى حاجتنا.. فهو لا يستغرب أن نعجز عن صنع ملبوسنا، ومفروشنا، وجميع الأدوات والآلات التي نحتاجها في شتى مرافقنا.. لا يستغرب هذا لأن الله كما سخر الحيوانات لقضاء مآربنا خلق الأوروبي –فيما يرى– ليخدم أغراضنا في الحياة. لا يستغرب هذا لأن عقليته المحدودة لا تتَّسع لتصوير الأشياء على حقائقها. ولو اتَّسعت للتصوير والفهم لبكى أسفاً على ما فرَّطت أمته، ولاستطاع أن يدرك أننا في عوزنا إلى ما يصنع الأوروبي،

وفي حاجتنا إلى ما يتفضل به علينا ممّا يقيم أودنا نمتهن أنفسنا ونضع بين يديه عموم مقدراتنا ليتصرف في شأنها كما يحلو له.

لدينا من يفاخر بأنه ورث الطوافة أو الزمزمية مثلاً من جد عريق في النسب شامخ في المجد، ولو علم أن مأساة بلادنا اليوم في الاقتصار على مثل هذا الاحتراف، وأن أمثال هذه المهن هي على تأخرنا من قرون – لبكى حزناً على ما أضعنا، وتمنى إلى الله أن ينسى أحفاده هذا التراث، ويواجهوا الحياة الصاخبة في الأسلوب التي تواجهها به أمم البلاد الراقية.

الحياة اليوم تضج بالحجارة التي يطحنونها، وأغوار الأرض التي يحفرونها، وغياهب البحار التي يغوصون إلى أعماقها، وآفاق الجو الذي يركبون متنه.. تضج بالحديد، والنار، والفحم، والبنزين، والكهرباء والآلات الجبارة. تضج بالسواعد المفتولة، والعزائم القوية، وألوان ممتازة من الثبات والشجاعة، كما تضج بالنظريات المبتكرة والتجارب المستمرة، والدراسات التي لا تنقطع.

هذه حياتهم الصاخبة التي استطاعوا أن يروضوا بها الحياة واستطاعوا أن يملكوا في فدافدها ما لا يقف عند حد.

هذه حياتهم التي أباحت لهم التملُّك في رقابنا.. مادياً، أو أدبياً، أو علمياً، أو اجتماعياً. فهل نسميهم بعد هذا خدماً مسخَّرين أم نعترف بمكانتهم العالية التي سوَّدتهم على وجه الأرض؟

إن في البلاد الحية اليوم أمماً يقظة تدرك كنه حياتها، وتفهم أن وسيلتها إلى الحياة المعززة المكرمة هي العمل الجدي النافع.. تفهم هذا فهماً جماعياً

لا يُستثنى منه حمّال الأخشاب في الغابات، ولا حفّار الأرض في المناجم، ولا وقّاد النار في المصانع.. فإذا قامت بينهم فكرة، أو صاح بينهم صاحب رأي لا يعجزون عن تفهُّم ما يدعو إليه، ولا يتباطؤون عن الاستجابة إذا تبيَّنت لهم وجوه الصواب فيما يرى.

ذلك لأن الذهنيات قابلة للفهم في شتى طبقات الأمة. لا فرق فيها بين عامل أو حمّال أو مدير يرأس أهم الأعمال. فقد استوفى الجميع من كل الطبقات نصيبه من العرفان الذي يكفي لتفتيق الذهن، واستيعاب المعاني العامة لحقائق الحياة!!

إذا تهيأ لنا في المستقبل من طبقات الأمة على اختلاف درجاتها مثل هذا الوعي العام الذي يفهم الحياة على حقائقها، ويستطيع أن يستوعب الفكرة النافعة. ويعرف كيف يستجيب لها، ويجنِّد نفسه لخدمتها.. فثق أننا سنضمن النجاح لبلادنا ونستأنف حياتنا على الأرض في عزم وثبات. فامضوا بنا.. ودعونا.. نمشِ!

يتسابقون بين أرجُل الحجاج

حدثني صديق لي فقال: كنت أزور اليابان. فمررت مصادفة بحي من الأحياء الفقيرة في إحدى مدنها. فرأيت سائحاً أجنبياً يحمل آلة للتصوير، وقد وقف إلى زاوية في الشارع الذي ارتاده يصوِّب آلته إلى بعض النساء الفقيرات الجالسات إلى بعض الأرصفة يعرضن بضائعهن الرخيصة، فما كاد يفعل حتى هجم عليه أحد المارة واختطف آلته في عنف، ولم يلبث أن شاركه أكثر من واحد من عابري السبيل.. كانوا يصخبون في غضب، ويحتدون في حماس؛ لأن السائح أراد أن يغافلهم ويسجل بآلته منظراً لا يشرف بلادهم.. فأبى عليهم وعيهم الوطني إلاّ أن يحولوا بينه وبين ما أراد.. فكانت الضجة الصاخبة، وكان المنع بالإكراه.

قال صاحبي: هذا دليل من آلاف الأدلة على مقدار الحب الذي تغلغل في أعماق اليابانيين لبلادهم.

قلت: إن هذا ليس حباً فقط؛ لأن الحب في صورته هذه لا يقتصر على الجنس الياباني دون الأمم، فالمعروف أن جميع الأجناس من غير استثناء تحب بلادها حب اليابانيين لأوطانهم.. يستوي في هذا البدوي في بيته من الشعر، والزنجي في عشته من الخوص، والأسكيمو في جحره من الثلج.. ولكنك تجد إلى جانب حب الياباني لبلاده شيئاً تسميه الوعي العام المتيقظ.

والوعي العام المتيقظ ليس مصدره العواطف الطيبة التي يشترك فيها جميع الأمم من جميع الطبقات فقط، وإنما مصدره –إلى جانب ذلك– المعرفة العامة التي تناولت روح الياباني فهيأتها لما ترى.

هذه المعرفة أعدت الياباني لفهم مركزه الدقيق بين الأمم، وعلمته كيف يصون سمعته، ويحرص على الدعوة لها بأحسن الوسائل التي تعزز مركزه.

هذه المعرفة العامة لا تجد آثارها ناطقة في غضب الياباني لآلة تسجل بعض المناظر المسيئة لوطنه، بل تجدها عامة شاملة في جميع حركاته التي يتفانى في أدائها خدمة لبلاده وأمته.

تجدها عامة شاملة في المصانع التي بناها، والمدارس التي شيدها، ومرافق الحياة التي أقامها ليخدم بها مجد أمته.

وقد خدمها، ولا عبرة بالظروف الخاصة التي هيأته للفشل في الحرب الأخيرة، فتلك نتائج كان لا بد منها بالنسبة لأوضاع يعرفها فقهاء الأمم.

وإن أعداء اليابان المتنصرين لا يزالون بالرغم مما حدث يقدِّرون في الياباني رجولته، ونضجه، وقدرته على مسايرة الأمم الحية.

نريد أن نخلص من هذا إلى البحث في حقائقنا الراهنة.

ترى ما هي النسبة المئوية التي تغضب في بلادنا لسمعتها وتتألم لكرامتها؟

لدينا طبقات لا تزال تنظر إلى سيئاتنا العامة نظرة الرجل الذي لا يبالي بشيء.

فقد يمر بنا الغريب الحاج ونحن نخلط الهزل بالجد، ونمزح بألفاظ قد لا تليق بشرف بلادنا.. فهل يتورع الهازل عن مثل هذه المهازل ضناً بكرامة بلاده وصوناً لها عن نقد الغريب؟

ويزاول بعضنا أصنافاً من التجارة الصغيرة مع الحجاج.. فهل يخشى هؤلاء وهم في سبيل معاملتهم مع الحجاج سوء سمعتهم، ويحرصون على نقائها حرصهم على نقاء بيوتهم وصون سمعتها؟

إن هذا الحرص يقتضينا أن نكون مؤدبين في معاملاتنا، مهذبين في وسائل عرض ما نتاجر فيه.. نترفع عن الحلف الجزاف، ونلتزم الصدق فيما نقول، ونأبى الغش مهما درت أرباحه، لنعوِّد الحجاج على صدقنا وأمانتنا، ونظافة معاملاتنا، وإذا التزمنا لأسعارنا قيماً محددة رفعنا من شأننا في نظر الحجاج، وأعطيناهم عنا صورة تليق بنا كمسلمين كما تليق بنا كجيران لبيت الله الحرام.

ولا تشيع بيننا هذه المعاملات الفاضلة بناء على توصيات، أو أوامر يصدرها المسؤولون بقدر ما تشيع كنتيجة للتهذيب الجماعي، والتعليم العام الشامل الذي يتناول الأرواح فيشذبها، والطبائع فيمرنها على مباشرة أعمالها في الحياة في أسلوب يشرِّف بلادها ويصون عليها سمعتها.

نحن نرى صغار المرتزقة من المطوفين غير الرسميين يتسابقون بين أرجل الحجاج في أبواب المسجد وخلف السيارات التي تقلهم بين الشوارع والأزقة في صور لا تليق بمهنة التطويف التي انتدبوا أنفسهم لمزاولتها حول الكعبة،

فيحز الألم في صدورنا، ونتمنى على الله أن يلهم الرشد هؤلاء المرتزقة الذين يسيئون إلى معنوياتنا في بلادنا، أو تضرب الحكومة بيد من حديد على أعمالهم.. فترهق ضعفهم، وتسيء إليهم في معيشتهم الضئيلة، وتتفق مع قسوة الزمن على كواهلهم الرقيقة.. نريد هذا أو غيره لتغيير الأوضاع.. ولكننا نجهل أنه ليس ثمَّة علاج صحيح غير إشاعة التعليم إشاعة عامة تتناول الطباع والأرواح أكثر مما تتناول شيئاً آخر.

لو تهذب مستوى هؤلاء فيما يتهذب من مستوى الطبقات لرأينا من يغضب لكرامة البلاد، فيأبى أن تبقى السليقة غير المؤدبة عنواناً لأعمالهم، ولرأينا بعضهم يقود البعض إلى اتفاقات تجمع شتاتهم وتوحدهم صفوفاً ينظمونها في المسجد. بل يصونون أنفسهم في ترتيب كامل يهيئهم لخدمة الحجاج واحداً بعد الآخر في نظام مشرّف وأسعار لا تقبل المساومة.

إنني هنا في سبيل ضرب المثل لا أكثر.. فلست أريد أن أخص طائفة بعينها في البلاد. ولكنه السياق تتداعى معه الأمثال الحاضرة.

إني أعرف أنها ليست الطبقة الوحيدة التي تسيء بأعمالها المضطربة إلى سمعة بلادنا، وإنما هناك طبقات أخرى على مثالها، لم تفكر بعد في واجباتها نحو سمعتها وكرامة بلادها.. وهي في رأيي معذورة لجهلها كل العذر، ولا نستطيع مؤاخذتها إلاّ إذا استطعنا إشاعة التعليم بين جميع الأوساط، وتوجيهه توجيهاً خاصاً يُعنى بالأرواح والطبائع والأخلاق، أكثر مما يُعنى بحشو المعلومات واستظهارها.

وإن آلاف القصص والمواعظ وآلاف النصائح لا يمكن أن تترك أثرها في تهذيب المجتمع ما دمنا نُعنى بإيراد حروفها ميتة الألفاظ.

اللّي يَعرف أبونَا يقُلْ له

ونضيف إلى بعض طبقاتنا من السوقة وصغار الباعة والمرتزقة الذين لم يتهيأ وعيهم لفهم علاقتهم بكرامة بلادهم صنفاً آخر لا يقل عنهم جهلاً بواجباته.. أولئك نفر تعودوا التنزه أو الاصطياف أو السياحة في آفاق الأرض، وساعدتهم إمكانياتهم الخاصة على التبذل في النفقة، فنسوا علاقتهم ببلادهم، ونسوا أن لبلادهم مركزاً دينياً خاصاً لو تضافرنا على صيانته، واتفقنا على الحرص على كرامته في جميع البلاد التي نغشاها، لهيأنا له مركزاً ممتازاً في نظر المسلمين والأجانب، واستطعنا أن نحتل بين مئات الشعوب التي تتجه في صلاتها نحو بلادنا مقاماً له حرمته، وله قداسته التي لا تضاهى.

ومأساة المآسي في نفر من المرتزقة يجوبون بلاد الشرق العربي، يرتزقون باسم الكعبة والحرم، وينسون أن الحرم لا يقهرهم على ما يبذلون من كرامتهم، وأن الكعبة لا يشرفها أن ينتسب إليها إلاّ المجد العامل في ميادين حيوية لها قيمتها.

ومن الغريب أن تغتني بلادنا في سنيها الأخيرة، ويفيض الخير في آفاقها، وتتسع مجالات العمل لكل مجد نشيط، ويجد جيراننا على اختلاف أجناسهم في ربوعها ما يدر عليهم أخلاف الرزق.. فتتوافر هجرتهم إليها ويجدون الفرص سانحة لبناء بيوت لهم صناعية، وأخرى تجارية، فيعرفون كيف تنمى الثروات. بينما يهجرها بعض أصحابها إلى مختلف الأصقاع ينشدون

الإحسان، ويستدرون العطف في حياة يمرغها الذل، وهامات تطأطئها المسكنة!!

إنهم لا يستطيعون إدراك مبلغ الإساءة التي لا يسيئون بها إلى أنفسهم فقط.. بل ينالون فيها بلادهم بما يشوّه سمعتها.. لأن مستوى معلوماتهم في الحياة لا تتسع إلاّ إلى مدى محدود يرون فيه أنفسهم كسوبين يحتالون للرزق على قاعدة (اللي تغلب به العب به!.. واللي يعرف أبونا في هدي القرية يروح يقل له!) إنهم معذورون لأن أُفقهم الفكري لا يتّسع إلى أبعد من هذا المدى، ولأن معلوماتهم العامة لا تهيِّئهم لفهم الحياة على غير هذا الوجه الكالح المقيت.

وما دمنا في صدد هذا النوع من مساوئ الحياة فلنعد من جديد إلى حيث بدأنا بحوثنا في حدود بلادنا لنستعرض ألوفاً من هذه الأشباه استمرأت استدرار العطف، وألفت ذل السؤال، واحترفت ألوانه في إبداع لا يتوافر كثيراً لأصحاب الأعمال المحترمة.

ولعلّ هذا الشر كان محدوداً قبل سنوات.. ولكنه في أيامنا الأخيرة شرع يتفاقم لغير باعث معقول. لأن المنتظر بعد هذا الثراء الفائض أن يستغني الأهلون وفي مقدمتهم طبقات ما تحت الوسطى عن أعمال لا تشرِّف، لأن أبواب العمل التي تفتَّحت للمجاورين والغرباء أحرى بأن تتَّسع لأصحاب البلاد لو استعملوا حذقهم في النافع المجدي.

وتبدو آثار تفاقم الشر واضحة في أعمال بعض القبائل من جنوب البلاد، فقد نزحت عائلاتهم في ألوف مؤلفة إلى مكة وجدة، ولعلّ بعضها نزح إلى المدينة، فأصبحنا نشاهد رجالهم في أجسام يلمع السواد في بشرتها، ويكتنز اللحم في عضلاتها، يحترفون حمل الثقال في دأب وصبر، ثم لا يتورعون أن يبيحوا لنسائهم وفتياتهم وأطفالهم أن يرتادوا الأسواق في جماهير غفيرة ويستعطوا الناس في إلحاحٍ يدر الشفقة.

إن في هؤلاء النسوة وفتياتهن استعداداً طيباً للتكسُّب من خدمات البيوت في وقت اشتدت حاجة البيوت إلى الخدم، وتفاقمت الأزمة لقلة الأيدي العاملة فيها. ولكنهن لا يفكرن في هذا التكسُّب من تعاطي المهن، وربما شعرت الواحدة منهن بما يهين كرامتها وأنت تعرض عليها العمل الذي يغنيها عن ذل الحاجة.. لأنها ترى أن احتراف السؤال لا يقل قيمة عن احتراف أية مهنة تدر الكسب.

وهن معذورات فيما يرين؛ فإن معلوماتهن عن الحياة لا تتعدى ما رسم في أذهانهن عن حقائقها المشوهة.

ورجالهن معذورون؛ لأنهم حرموا نعمة العلم الذي يفتق أذهانهم على سوء ما يرتكبون نحو بلادهم، وهم يُعطون عنها هذه الصورة الدنيئة.

أتستطيع أن تدلي إلى أحد هؤلاء الأزواج بما يقنعه بسوء ما يتصرف؟ أتستطيع أن تحول اعتقاد المرأة فيما تفعل؟.. إن بلاغتك في هذا السبيل لا

تغدو أمام ناظرها إلاّ لغواً تلوكه، أو رطانة تشبه أعقد ما في لغة الأعاجم من كلام!!

لنعلم هؤلاء قبل أن نعظهم، ولنثقفهم قبل أن نرشدهم.. لنعلمهم إلى أن يخلص منهم أناس تتفتح أذهانهم لقواعد الحياة الصحيحة، ونعلمهم حتى تتسع مداركهم للمعاني السامية التي تشرِّفهم، وحتى يستطيعوا فهم النبل والإباء، وما في النبل والإباء من أخلاق كريمة.

إن الرجل الحر سيند جبينه خجلاً لمرأى هذه الطوائف تلاحق الحجاج والزوار في الشوارِع والأزقة والبيوت، وفي مسجد الله الحرام في صور مزرية ومناظر مؤلمة، ويتمنى لو ملك الحكم والنفوذ ليقضي على وبائهم ويطهر وجه البلاد من سيئاتهم.. ولكن مثل هذه القسوة ليس لها من العدل ما يبررها؛ فالجاهل معذور في كل مكان حتى تعلمه ما جهل.

فدعونا نتوسع فيما ننشر من ألوان العلوم، لنخدم بلادنا في سمعتها وما يليق بمركزها، ونخدم كياننا بما نهيئ له من وسائل الحياة الشريفة وأخيراً..

دعونا.. نمشِ.

ثم يَشتري بأقلّ من نصف الثمن

أجل! دعونا نمشِ، ولنكن عمليين بقدر ما يجب، أو أكثر ممّا يجب.. فقد مضت القرون تمشي وظللنا مكاننا نطوِّف الحجاج أو نزمزم لهم، ونتمتع بأفضل ما يتمتع به الكسالى من استرخاء.. أمّا اليوم قد أجمعنا على السير؛ فمن العيب أن نستخذي للذة الاسترخاء. ومن العبث ألاّ نحزم أمرنا على المضي.

دعونا نمشِ.. ولتكن الطوائف المهاجرة التي تغص بها بلادنا اليوم أكثر محفز لنا على تفسير معنى المشي، وليكن نشاطها المشاهد في جميع حقول الحياة دافعاً لنا على العمل النافع المثمر.

إن المهاجرين إلى بلادنا اليوم يضعون أيديهم على أكبر جزء من مرافق حياتنا اليومية، فهم النجارون اليوم، وهم الحدادون، والسماكرة، والصبّاغون، والحلاّقون، والطبّاخون، والبنّاءون، والحذّاءون، والخيّاطون، والمنجِّدون وهم المهندسون في العمار، أو في الميكانيكا، أو في الكهرباء، وهم التجّار والمستوردون إلاّ قليلاً، وهم الباعة المتجوّلون فهل حفَّزنا هذا للعمل؟

إننا لا نزال نعيش كما كنا نعيش بالأمس، إن لم نقل إن أمسنا قبل أن نعرف الغنى كان خيراً من يومنا في كثير من ألوانه. فقد كانت لنا أيدٍ صناعية، تغني بعض مطالبنا، في حياة كنا نعيشها محدودة.. كانت لنا صناعة في النحاس، والحديد، والفضة، والذهب، وكانت لنا أيدٍ تطرز الحرير،

والقصب، وكانت أسواقنا تزدحم بمنتوجات أراضينا، وحوانيتنا مشغولة بأيدي عمالنا.. كان منا الطبّاخ، ومنا الحلواني، والفوّال، ومنا التاجر، والمستورد.. أمّا اليوم فقد أزاحنا أصحاب النشاط من المجاورين عن كل ما نمتهن، وخلف من صناعنا الخلف الذي تعلم التأنق والرفاه، وقطع أسبابه بمهن آبائه واستقذر مباشرتها، وأعدَّ نفسه للتمسح على أبواب الوظائف، أو هيأها لخدمة الحاج في أسلوب لا يشرف أناقته الموهومة.. لأن الخادم مهما سمت في نظره الخدمة لا يستطيع أن يسمو عن مركز الخادم.

ما يمنعنا أن نسابق المجاورين إلى ما سبقونا، وأن نستعير نشاطهم الملموس في مرافق بلادنا؟ وما بال الباقين منا في حرفهم يجمدون على قديمهم.. فلا تزال محال الأكل عندنا يندى الجبين خجلاً عند رؤيتها، ولا تزال المشارب العامة والمقاهي لا تصلح لاستقبال زبون محترم.. إلاّ المحال، وإلاّ المشارب التي شرع المجاورون يؤسسونها في بعض بلادنا كنماذج تدل على مدى الفرق الشاسع بين حالنا وما يجب أن يكون؟

دعونا يا قوم نمشِ في خطى ثابتة، شاملة، تستغرق كل مرافقنا.. من محالنا العامة، وبيوتنا الخاصة.. إلى مؤسساتنا في جميع مجاليها.. لنثبت للحياة أنا جديرون بها، وأن أهليتنا للنهوض والتقدم لا تقل عن أهلية غيرنا من الأمم التي تعاصرنا.

وإذا كانت حكومتنا قد بدأت تنفق الكثير في سبيل تهيئة شوارعنا، وشتى مظاهر بلادنا لما يليق أن نبدو به أمام الصديق والعدو على السواء، فما

يمنعنا أن نساير هذه الحركة ونتضامن وإياها على إبراز شوارعنا وما يبدو من ظواهرنا في أوضاع لائقة، وصور مشرفة؟

أرأيتم بعض باعتنا، وكثيراً من أصحاب الحوانيت بيننا يبرزون ببضائعهم إلى مسافات تمتد بعيداً عن حوانيتهم فيتخذوا من مساحة الشوارِع وأرصفتها حوانيت جديدة يضيفونها إلى حوانيتهم؟. إنهم بهذا يعصون قواعد الحضارة، ولا يبالون بتجميل بلادهم ومساعدتها على الظهور في المظهر اللائق المشرِّف.

قد نعتذر لبعضهم بضيق المساحات التي أسست الحوانيت على قواعدها.. ولكنه عذر لا ينهض لجميع أصحاب الحوانيت كما أنه سوف لا ينهض للمعذورين أنفسهم. لأن الوفي المستيقظ في أي أمة يهيئ نفسه للتضحية في سبيل التجميل العام، ويعلمها كيف تضغط على مصالحها الخاصة لتمنح بلادها فرصة تليق بما نتمناه لها من سمعة طيبة.

وما دمنا في صدد حوانيتنا، وباعتنا في الشوارِع، فلا يجب أن ننسى طريقتنا في المساومة والبيع.. فهي لا تزال تأخذ أشكالها العتيقة التي بليت ببلاء الأجيال.. لا يزال الزبون الحاج يساومنا فيما نبيع، ثم يشتري منا بأقل من نصف الثمن الذي عرضناه.. وتلك أساليب أصبحت تزعزِع الثقة بين التاجر والزبون، وأصبحت قواعدها تتنافى مع الاحترام والكرامة!!

إن تحديد التاجر أسعاره في محيط دكانه أصبح اليوم ضرورة لازمة لاحترام التاجر واحترام أسعاره.. أصبح التجديد في العالم تجديداً شمل جميع أقطار

الأرض الراقية، وأصبح نظاماً ساري المفعول في كل أمة تحترم شخصيتها. فما بالنا نجمد على ما عودتنا أجيال لفها البلى، ودفنها الماضي؟

إن الحاج المحترم لا يسيئه في بلادنا شيء كما تسيئه هذه الأساليب العتيقة التي يزاولها باعتنا وتجارنا، وإنه اليوم ينظر إلى معاملتنا من هذا القبيل نظرته إلى شيء مخيف.. فيه من الخداع والختل أكثر مما فيه من معاني الرجولة والثقة.. فما يمنعنا أن نشرف بلادنا في نظره، وأن نصطنع الأساليب التي تُعلّمه احترامنا، فنوفر بذلك ما نبذل من أوقاتنا، ونظفر من راحة البال ما يغنينا عن الجدل، وما يتطور إليه الجدل في بعض الأحيان من مهاترة؟

ما يمنعنا أن نتعلم الوضوح في جميع معاملاتنا التجارية والاجتماعية في ذات بيننا أو مع الوافدين من ضيوف أو حجاج، وأن نصون كرامتنا ونكبر بها على الغش إذا كان فينا مَن يعرف غش البضاعة أو يستمرئ الخداع، وأن نرتفع عن اقتناص الزبون بالأيمان المحرجة مهما كان لونها من الصدق، فالإلحاح بالأيمان واللهفة على اقتناص الزبون تسيئان إلى مركز البائع أكثر مما تفيدانه. وتصوره بأبشع ممّا يتصوّر به القناصة في مجاهل الصحراء؟

سيهزأ بنا الآن قوم ألفوا أساليبهم العتيقة. وسوف لا نبالي بما يهزأون.

فهلموا بنا..

ودعونا.. نمشِ!!

هذه التبرعات عِلّة تأخرنا

دعونا نمشِ.. ولا يكون المشي صحيحاً حتى تشمل حركته أهم نواحينا في الحياة.

ولعلّ فكرة تصنيع البلاد من النواحي البارزة التي تعتدُّ بها الأمم في نهوضها، وتُوليها من العناية أكبر قسط.. وعندما أقول ((لعلّ)) أُقحم هذا الحرف في غير موضعه المناسب، لأن التصنيع شيء لا غنى عنه للأمم، ولا يجوز بحال أن نسبقه بلعلّ؛ أو غيرها من حروف الترجّي.

لا ننكر أن في بلادنا اليوم طوائف ممتازة من رجال المال، وآخرين ممّن زحفت أرباحهم إلى مراتب الملايين في أرقام تستأهل الحسد من معاصرينا من الأمم، ثم لا ننكر أن طوائفهم لم تنل ما نالت إلاّ بعد الدأب والكد.. ولكن الذي ننكره أو نستنكره أنه دأب محدود، وكد لم يتجاوز مداه القصير.. إنه كد، وإنه دأب في مجال لا يكاد يتجاوز الاستيراد التجاري، ومثل هذا الكد لا يُفيد الأمم بقدر ما يُسيء إليها.

إن منافع هذا الكد تكاد تقتصر على خزائن المستوردين، أمّا مجموعة الأمة، وأما ثروتها القومية فإن ضررها من اتساع الاستيراد لا يكاد ينتهي عند حد!!

وإن الأمم الحيّة اليوم لا تبيح لموازنتها العامة أن تتوسع في بنود الاستيراد كما تتوسع في بنود التصدير، فهي تحاول جهد استطاعتها أن تضغط عمليات الاستيراد لتوفر لثروتها القومية أكبر قدر مستطاع من طاقتها.

قرأنا ونقرأ كثيراً أن بعض الأمم تحرِّم بعض الكماليات التي يستوردها تجارها لتصون بذلك ثروتها في حدود بلادها، ولتشجيع الأيدي العاملة في البلاد على تقليد تلك الكماليات؛ أو تُعلّم جمهورها الاستغناء عن رفاه صفيق لا يعوّضها ما تفقده من ثروتها العامة.

وسمعنا عن أممٍ أخرى تحارب حتى الضروريات المستوردة من خارج بلادها من مطعمٍ أو ملبس، لئلا يزاحم ذلك منتجاتها. فهل نستطيع أن نفكر في هذا؟

سنستطيعه إذا أراد لنا المتمولون ذلك.. إذا عرف المتموّلون كيف يوجّهون جهودهم نحو التصنيع، وعرف أصحاب الملايين كيف ينفقون ملايينهم في إنشاءات تدر عليهم الأرباح التي تعودوها، وتغني بلادهم عن الحاجة التي تُقيِّدهم للأجنبي المستغل.

إن إنشاء معامل للزجاج، والحديد، والجلود، والقماش، والخزف، والكبريت وكثير من مستلزماتنا الأولية في الحياة لا يُكلّف أصحاب الملايين منا إلاّ لفتة فيها شيء من العزم وشيء من الدأب اللذين جرَّبوهما فيما تناولوه من ميادين أعمالهم الواسعة.

يستطيع الرجل منهم أن يرصد من أمواله جزءاً لا تأبه له خزائنه الواسعة والحمد لله، ليُحيل هذا الرصيد إلى آلات جبارة تغني حاجتنا إلى صنف أو أصناف من مستلزماتنا اليومية.. التي بتنا ونبيت فقراء فيها إلى ما يصنعه

الأجنبي ليتصدّق به علينا، ولا يكتفي حتى يستنزف باسمها ما نملك من ثروة في بلادنا.

إن في بلادنا من الحديد، والنحاس، والقصدير، والفضة، والذهب، والزجاج ما يهيئنا للغنى الواسع، وإن في بلادنا متموِّلين لا تعجز أموالهم عن تمويل أضخم مشروع من هذا القبيل ولكن ينقصنا أن نفهم هذا.

نحن لا نريد أن ننكر مستوانا العلمي كيماوياً، أو ميكانيكياً، أو جيولوجياً.. ولكننا نستطيع أن ندَّعي أن لدينا من الأموال ما نشتري به العلماء المتخصِّصين من آفاق الأرض.. كما نشتري الأيادي العاملة، والآلات المنتجة التي تكفي اليوم مؤقتاً لتأسيس نهضتنا آلياً. حتى إذا اندمجنا فيما نُنشئ تفتَّحت أمامنا الآفاق وسهّل علينا إنتاج العلماء والمختصِّين.

إننا نسمع أخبار المتبرعين منا لا بعشرات الألوف أو بمئاتها.. بل بأكثر من هذا وأكثر.. فهل جاء هؤلاء المتبرعين أن ثمة مجالاً أجدر بالتبرع، وأحرى بالكرم؟.. وأن هذا المجال هو مجال التصنيع الذي ينقذ البلاد من عسرها الذي باتت تئن تحت وطأته وآلامه؟

هل جاء هؤلاء المتبرعين أن عطفهم على فقر بلادهم في الصناعة والزراعة أقرب إلى مثوبة الله وإحسانه من كثير من تلك الميادين التي يختصّونها بتبرعاتهم في أرقام تدوي بها الصحف وتضج؟

هل جاءهم أن علَّة بلادنا في قرون هي التبرعات التي كان يغمرنا بها المحسنون في الإسلام؟ وأن هؤلاء المحسنين لو فكروا قبل اليوم في إنشاءات صناعية لأحسنوا إلى البلاد بتشغيل الأيادي العاملة فيها؟

سنقول إن كثيراً من موارد التصنيع الأولية لا تملكها إلاّ بلاد زراعية، وبلادنا غير زراعية، والواقع أنه ليس بيننا وبين الزراعة إلاّ أن ننشط لها، ونسلمها جزءاً من ملايينا في نظام اقتصادي فيه من الإتقان والخبرة الفنية ما يضمن لنا نجاحاً مطَّرداً.

لقد جرَّب غيرنا إحياء الصحارى والقفار القاحلة، فأنتجت التجربة خصوبة طيبة وإنتاجاً عالياً، فما يمنعنا أن نُجرِّب ما جرَّبه غيرنا ما دامت إمكانياتنا من المال لا تضيق عن مثل هذه التجارب أو أضعافها؟

لنحفر في كل بقعة بئراً، ونُقارب بين هذه الآبار في مسافات تضمن لنا الإنتاج الزراعي.. لنبحث عن المياه المغمورة، والعيون المطمورة، ونبني السدود حيث تتجمع المياه.. لنوزِّع هذه الأراضي بالمجّان على من يُحييها، أو نعرض تأجيرها على المتموّلين بأسعار رخيصة مغرية، حتى إذا اجتمع لديهم ما يعوّض ما فقدوه، وربحوا من ثمارها ما يتكافأ مع ما بذلوا من جهد استعدناها، وأعلنّا بيعها على مَن نثق في كفاءته الإنتاجية.

إذا توسَّعنا في هذا، وبذل المتموّلون منا أموالهم في سخاء منظَّم، وفي ضوء الخبرة الفنية المستحدثة في آخر ما انتهى إليه علم الزراعة من ابتكار.. فسنظفر بنتائج تُغنينا غداً عن كثير مما نستورده من مواد طعامنا، وسنستطيع

في أحد الأيام أن نقف إلى جانب مَن يُعاصرنا من الأمم موقف الندِّ للندِّ، وألاّ نبيح لهم أن يشمخوا أو أن يُعيِّرونا بفقرنا إلى ما يُصدِّرون إلينا من طعام، أو أن يُملوا علينا إرادتهم إملاء الغني الذي يشعر بحاجتنا إليه ويعرف مقدار فقرنا إلى ما يُنتج.

وإذا توسَّعنا فيما نزرع فسوف لا نعجز في المستقبل عن إيجاد المواد التي نفتقدها اليوم لتبقى على أسسها مجداً صناعياً يُهيِّئنا لمواجهة الحياة، ويُعِدنا لمسابقة الأمم التي سبقتنا في أشواط واسعة.

إن خطوتنا الأولى إلى إحياء الأراضي الزراعية رهينة بيقظة الوعي في صفوف المتموّلين في بلادنا وهم كثير، واقتناعهم بأن ما يبذلون من أموالهم في مثل هذا السبيل أفضل بكثير ممّا يبذلونه باسم التبرعات لتكتب الصحف عن أسمائهم وتُدلِل عليهم بالأرقام الخيالية التي يسخون بها.

ترى ما شأن بعضنا بمئات الألوف من الجنيهات التي يسخو بها لقاء فن يحييه على هامش الحياة، وأمامه هذه الحقائق العملية في صميم الحياة لا يُعيرها عنايته ولا يوليها بذله السخي؟

وإذا توسَّعنا فيما نصنع كما نتوسَّع فيما نزرع، استطعنا أن نُثبت وجودنا وأن ندعم كياننا، وأن نعتمد على الإنتاج الزراعي كمواد أولية في وجوه صناعاتنا المتعددة، وأن نسخِّر جبالنا ورمالنا للإنتاج الحي الذي يُثبت خطانا.

فهل يعي المتمولون مقدار حاجتنا إلى بذلهم في أمثال هذه المجالات؟ وهل يُقدِّرون مبلغ ما أُنيط بهم من آمال بلادهم وأمانيها؟؟

نؤمل أن يسمعنا المتموِّلون وأن يُهيئونا.. لنمشِ!!

لنهدّمْ هذه البيوت!!

إنك لا تمر بأهم الشوارع حتى تصافحك الأماكن الخربة داراً بعد دار في مسافات واسعة، ومناطق تكاد أن تتسلسل، وفي هذا فرصة كان يجب أن يتمناها المتموّلون، لأن فكرة التجديد الشامل سوف لا تكلفنا إلاّ أن نضع معاول الهدم في هذه البيوت فنسوّيها بالأرض، ثم نبني على أنقاضها دروباً جديدة وشوارع فسيحة، ونرفع على جوانب الدروب والشوارع دوراً حديثة، تمتُّ في هندستها وتفصيل بنيانها إلى القرن العشرين بعد أن نقطع صلتنا بجميع ما ورثنا من أساليب هندسة البيوت القديمة.

ولا عجب في هذا، فقد كان آباؤنا يستوحون ظروفهم الخاصة فيما بنوا فأملى ذلك عليهم هندسة خاصة لا علاقة لها بنظام (الشقق) الشائع اليوم في البلاد المتمدِّنة، أما وقد تغيَّرت الظروف بتغيُّر الأيام، واستطعنا اليوم أن نستخدم الكهرباء في بيوتنا لأغراض شتى.. ففي استطاعتنا العدول عن هندستنا القديمة إلى الأساليب الحديثة التي نستغني فيها عن السطوحِ بمكيِّفات الهواء، ونستفيد من تعدُّد الغرف (والشقق) بآخر ما وصل إليه فن البناء.

ولعلّ الذي يؤلم في أمر الخراب الشائع في أهم شوارعنا اليوم، أن بعضه يمثله دور ورثها خَلف فقير لا يقوى على استئناف بنائه.. فتركها لعاديات الأيام تزيد في خرابها، وتشوِّه مناظر البلاد وهي تحتل أهم مواقعها المفضلة.

وبعض هذه الدور أوقفها محسنون سلفوا، كانوا يرون الإحسان فيما أوقفوا، فلما آلت الدور إلى الخراب لم تجد من يُعنى بأمرها أو يُقيم بناءها، فظلت ضحية حسن النية، تشوّهِ المنظر العام للبلاد، وتحتل خراباتها مناطق نحن اليوم في أمسِّ الحاجة إلى تعميرها.

غَبّر دقْنُه ويتعَبْ في شِيلُه

دعونا نمشِ متساندين في إطار تُهيمن عليه روح الجماعة، فقد جرَّبنا، وجرَّبنا طويلاً فكرة الفردية فما أسأنا إلى بلادنا كما أسأنا إليها بهذه الفكرة!!

كانت أمثالنا العامة تهيئنا لفكرة الفردية وتُعِدُّنا لها إعداداً)) :أنا عود من طرف حزمة.. كيل ما هو كيلك لا تحضره، تتغبر دقنك، وتتعب في شيله.((

وليس للأمم مرآة تعكس حقائقها في صدق كما تعكس الأمثال العامة فيها هذه الحقائق.. فدعونا نتبيَّن صورنا في ضوء ما شاع من أمثالنا ونُحدد بالضبط مواطن الداء في كياننا.

(أنا عود من طرف حزمة) وأعني بهذا أنني عود في طرفها.. لا أُكلّف بشيء إلاّ بعد أن تُكلَّف الحزمة. ثم ينتقل التكليف إلى أطرافها. وفي هذا من روح الفردية ما لا يتهيأ معه تساند.

وإذا كانت هذه الأنشودة أغنية كل عود في الحزمة. فهل يبقى في الحزمة عود يُطالب بألاّ يكون في أطرافها؟ وهل يبقى فيها عود يشعر بأنه هو الحزمة؟؟

إن الجلي الواضح في شأن هذه الحزمة أن جميع أعوادها صالحة لأن تكون فيها. وبذلك تفقد الحزمة بينها عوداً واحداً يشعر بمسؤوليته فيها!!

فلا غرابة إن عاشت حزمتنا ضائعة مدى الأجيال، ولا غرابة إذا فقدت بذلك كيانها كحزمة، وأصبحت علاقة جميع أعوادها بالحزمة علاقة الطرف الناشز!!

أبقيتْ بعد هذا حزمة لها كيان يستحق أن يُطلق عليه كلمة الحزمة؟ أم أن في الأمر مجازاً لا ظل له من الحقيقة وفي البيداء أعواد لا تجمعها حزمة؟

هذه هي الحقيقة إذا أردنا ألاّ نجامل أنفسنا على حساب مصالحنا، وهذا هو الواقع إذا أبينا أن نزيف أو يخادع بعضنا بعضاً.

هذه هي الفردية المقيتة في أسخف صورها لا يُجادل في شأنها إلاّ مكابر. أما نتائجها بالنسبة إلى مجموع الأمة فقد لمسناها في جميع أغراض التأخر البادية في محيط بلادنا.

ثم هذا الكيل الذي نرتِّل له أنشودتنا في جملة منسَّقة))كيل ما هو كيلك لا تحضره.. تتغبر ذقنك، وتتعب في شيله ((أنعني به شيئاً غير أننا نعيش محدودين بمصالحنا الخاصة؟ غير آبهين إلاّ بما يعنينا في حدودنا؟

لعلّه يتبادر إلى بعض المكابرين أن يفسِّر لنا هذا المثل تفسيراً خاصاً يدعو به إلى ترك الفضول، ومجانبة التطلُّع إلى خصوصيات الغير.. ولكن ألا يرى مثل هذا المكابِر أننا توسعنا في هذه المعاني وبتنا لا نُطلق المثل إلاّ لنعاتب به من يعني نفسه بالأمور العامة الخارجة عن اختصاص مصالحه المحدودة؟

هذا إنسان (خارق الدنيا وحاططها في حلقه!!) نعم إنه (حاططها في حلقه) لأنه يعتني بأمور غيره، ويمتد فضوله إلى الأشياء العامة التي تخرج عن

حدود اختصاصه، ولأنه (يحضر كيل ما هو كيله فتتغبر ذقنه ويتعب في شيله).

أنُسمي هذا فضولاً؟.. إن للفضول بمعناه الذميم صوراً لا علاقة لها بما نحن في صدده.

قد أسميك فضولياً إذا وضعت أنفك في خاصة شؤوني التي لا علاقة لها بك.. ولكن هذه الشؤون الخاصة قد تترتَّب عليها مضار تتعدّى إلى غيري ممّا يتعلق بمجموع الأمة، فهل تكون فضولياً فيها إذا وضعت أنفك؟

تصور أنني لا أُعنى بتربية أولادي تربية صحيحة، أو لا أحفل بتعليمهم تعليماً نافعاً، أو أنني غني أكتنز في خزائني الحديدية أموالاً مكدسة لا أفهم ميزة تشغيلها. وأبت حِميَّتك إلاّ أن تُعيب تصرفاتي من هذا القبيل، وأن تتدخل فيما بيني وبين فهمي لحقائق هذه الأشياء.. لتدفعني إلى ما يجب نحو أولادي وأموالي. أو بالأصح إلى ما يجب علي لفائدة المجموع.. فهل تكون في هذا فضولياً (خارق الدنيا وحاططها في حلقه)؟ أو تكون (رجل متعمِّم بالدنيا ومتحزِّم بالآخرة)، أم تكون من ذلك الصنف الذي (يحضر كيل ما هو كيله تتغبر ذقنه ويتعب في شيله) أم أنت رجل حميٌّ تغار عليّ كما تغار على بلادي إذا نالها تصرُّفي بما يسيء؟؟

ليس في هذا فضول بل هو الواجب كل الواجب.. لأن تصرفاتي فيما أسلفت في شأن أولادي وأموالي منكر. وأنت مُكلَّف باسم الدين أن تغير المنكر، ومُكلف باسم الوطنية أن تتدخل فيما بيني وبين فهمي لحقائق

الأشياء.. لتدفعني إلى إعداد أولادي إعداداً نافعاً للوطن، وتُبصرني شؤون أموالي لأُطلقها في مشاريع حيوية أبني بها صرحاً لأمجاد بلادي.

أرأيت أن وضع الأنوف لا يكون فضولاً في جميع الحالات؟ وأن كثيراً مما أسميه شؤوناً تخصُّني هي في واقع الأمر حقائق شائعة من حقك أن تضع أنفك فيها لما يترتب عليها من مصالح عامة تترك أثرها في مقدرات البلاد؟

كنت أشاهد في طريقي دائماً أحد البقّالين، وقد جمع صغاره حوله في الدكان في فسحة ما بعد العصر وألزمهم بالإكباب على كراساتهم يستظهرون محتوياتها في إرهاق واضحة آثاره على جباههم، فتجرّأت في إحدى المرات وأسررتُ إليه أن هذا الإكباب يدفعهم إلى الكلل، وأنه يُحسن صنعاً إلى نشاطهم لو أباح لهم أن يلعبوا في هذه الأمسيات بعد أن قضوا يومهم في أعمال المدرسة ليجدِّدوا ما فقدوه فيها من نشاطهم. فما كان من صاحبي البقال إلاّ أن نظر إليَّ في غضب، ثم دار على عقبه ليصيح في صغاره)) :كرر يا واد.. كرر وإلاّ كسرت نافوخك.((

فكان رداً عملياً نالني فيه من الكسوف ما ظنني أستأهله لأنني ما زدت في نظره عن فضولي يضع أنفه فيما لا يعنيه، و))يتدخل في كيل ما هو كيله((؛ فحق عليه أن))تتغبر دقنه ويتعب في شيله.((

ولو اتَّسعت آفاق صاحبي لأدرك أن عملي لا يمتُّ إلى الفضول بشيء، وأن ما فعلته من صميم الواجب، لأن إرهاق صغاره ستترتّب عليه إساءة

إلى مجموعِ الأمة بعد أن بدت حاجة البلاد المُلِحَّة إلى نشءٍ يتمتع بعقول نشيطة وأذهان غير مكدودة.

ولكن، من لنا بمن يُجدِّد لنا معاني الفضول في حيِّزه الضيق، ويُعيننا على مقت فكرة الفردية التي عشنا نُدين بها، والتي ورَّثتنا عللاً وأمراضاً لا نزال نئن تحت آلامها.

نحن في حاجة إلى التفكير الجماعي، وإلى الشعور الجماعي، فلا نبيح لأحدنا أن يشعر أنه عود من طرف حزمة، لأننا ونحن نتقيَّد بمثل هذه القاعدة نستطيع أن نسمِّي أنفسنا جميعاً أعواداً في أطراف هذه الحزمة وعندئذ فسوف نبحث عن الحزمة فلا نجدها.

دعونا نكن أعواداً في الحزمة على أن يمثِّل كل فرد منا كيانها كاملاً، فلا يرى فينا عود طرف ينتظر غيره في الحزمة، ولا يرى فينا عود نشاز لا يشعر بمسؤوليته فيها.

دعونا نتساند فنضع أنوفنا في كل ما له علاقة بمجموعنا كأمة واحدة ذات وطن واحد، وإذا أبى ضيِّقوا الأذهان إلاّ أن يحجزوا علينا ما سمّوه خصوصياتهم فدعونا ننكر عليهم هذا الحجز إذا بدت لنا أية علاقة بين خصوصياتهم وبين مصالح المجموع.

فنحن لا يجب أن نعترف بحقوقهم المحدودة في أولادهم، لأنهم أولاد الأمة ولا في أموالهم إلاّ بقدر، لأنها مادة الوطن، ولا في أخلاقهم ومعاملاتهم الخاصة، لأنها مظاهر تُشرِّف البلاد أو تُسيء إليها.

إن الزارِع في حقله، والصانع في عمله، والتاجر في متجره، والموظف في مكتبه، والتلميذ في معهده والمؤلف –بين أوراقه– جندي في وطنه بقدر ما هو عائل لأهله.. فلا يجب أن نتركه لما يظن من خصوصياته قبل أن نُطالبه بحقوق الأمة عنده.

يجب أن يخدم بلاده فيما يعمل إلى جانب ما يخدم من خصوصياته، ويجب أن يحرص على فائدة المجموعِ فيها إلى جانب ما يحرص عليه في خدمة نفسه، ويجب أن يرعى كرامتها وسمعتها إلى جانب ما يرعى من كرامة بيته وسمعته.

إذا استطعنا أن نعلِّم طوائفنا هذا القدر من التفكير الجماعي المشترَك، وإذا استطعنا أن نلغي من قواميسنا هذه الفردية المقيتة؛ نستطيع أن ننسى أمثالنا الشائعة التي تمنع الرجل منا أن (يحضر كيلاً ما هو كيله).

دعونا نفهم أن كيل الفرد منا هو كيل المجموعِ، وأن تجارة الفرد وصناعته وعمله كائناً ما كان هو تجارة وصناعة وعمل للمجموعِ.

دعونا نفهم أن أعوادنا حزمة واحدة ليس فيها طرف ولا نشاز؛ وأننا كما نحن سواسية أمام الله، فيجب أن نكون سواسية أمام المسؤولية العامة؛ لا يُمَيَّز أدنانا على أعلانا.

وأخيراً.. دعونا.. نمشِ!!

يَطبعُونهم على إيثار وطنهم الأصلي

عبنا على أنفسنا فكرة الفردية ولعلّنا أسرفنا القول فيما عبنا، ولا نعتقد أننا مع هذا الإسراف أوْفينا حقوق البحث.

وفي فصلنا هذا تتداعى أمامنا معاني هذه الفكرة، وتشوقنا المناسبة إلى الحديث عن أفراد منّا لم يتواكلوا كما تواكل غيرهم عندما رأى أنه عود نشاز في طرف الحزمة. بل كان مثلاً قوياً من أمثلة العمل الجاد.. دأب على النافع المفيد، واستطاع أن يكلل دأبه بنجاح منقطع النظير.. ولكنه مع هذا أبى إلاّ أن يكون جاحداً فيما دأب، ناكراً للجميل فيما نجح.

أبى إلاّ أن تكون جهوده وقفاً على أنانيته، لم يرعَ فيه إلاًّ ولا ذِمة، ولم يذكر عند ظفره فيها أن له علاقة بوطن يمتُّ إليه ومواطنين ينتسب إليهم.. وأن لهذا وهؤلاء المواطنين حقوقاً أدبية يجب أن تُستوفى، وديوناً معنوية يجب أن تُؤدّى.

أعرف مواطناً لا أُسميه، أنجبته أرضنا فيمن أنجبت، ورعْته صغيراً فيمن رعتْ، وأقلته ناشئاً فيمن أقلت.. حتى إذا استوى عوده، واستطاع أن يُهاجر إلى حيث توطَّنت قدمه، نسي أهله القدامى وبني عمومته الأقربين، ولداته الأدنين، ونسي أن له وطناً ربّاه وغذّاه كما ربى أباه وجده وغذاهما.

لقد كان عصامياً في هجرته، ومثالاً من أمثلة الجدِّ في كدِّه.. استطاع أن يبدأ حياته من جديد بائعاً متجوّلاً. حتى إذا نمت تجارته أسَّس لها مصنعاً زوَّده بالآلات والمحرّكات فتضاعف الإنتاج، وتوسَّع العمل، وطارت شهرته

حتى تجاوزت الحدود، وحلَّ محل المتجر بيت تجاري كبير كثير الفروع يوزِّع إنتاجه على عملاء لا يُحصى عددهم، وتبلغ أرقام رصيده في البنوك مبالغ يعزُّ منالها.

فماذا بعد كل هذا؟

عرف صاحبنا لمهجره وحقوقه في هذا النجاح.. فاستوطنه ولعلّه تجنَّس بجنسيته، وأقام فيه قريراً بثرائه الطائل، ولكن.. ولكن ما فعل الله بموطنه الأصلي؟

أثمة علاقة تُذكره بجيرته في الزقاق، ولداته في الحارة، وأهله من ذوي القربى، وأصهاره من ذوي الرحم؟!

إنني أُشفق على قرائي من أصحاب الحميَّة أن تصدمهم المفاجأة إذا علموا أن صاحبنا نسي جميع ما يمتُّ إلى وطنه بصلة، وأنه نسي بنسيان ذلك أقرب الناس إليه من أعمامه وأخواله، وجميع من يُنسب إليه من بنين وبنات وعمات وجدات!!

نسي كل هذا.. واتخذ له من ثرائه نسباً جديداً، ومن عملائه ومساعديه أهلاً وأقارب!!

فهل بعد هذا نكران يستحق أن يُسمى نكراناً، وهل بعده جحود يُضارع مثل هذا الجحود؟؟

يذكرني هذا بجماعة اللبنانيين المهاجرين في أمريكا فقد فر أكثرهم بصبابة ضئيلة لا يملك غيرها من المال.. حتى إذا حط رحله في أي بلد من أمريكا

نذر نفسه للعمل، وللعمل الشاق المضني، وظل على ذلك حتى يستغني ويتسع ثراؤه.

وقد بلغ من اتِّساع ثروات بعضهم في أمريكا أن أصبحوا يُضاهون كبار الرأسماليين فيها، واستطاع كثير منهم أن يؤسسوا بيوتاً تجارية، وأخرى صناعية لا تقل شأواً عن البيوت الكبيرة في أمريكا.

ومع هذا فلم يصرفهم غناهم، ولم تصرفهم ثرواتهم، واتِّساع نطاق أعمالهم عن البلاد التي غذَّتهم أطفالاً، وأقلتهم صبياناً.

كانوا ولا يزالون يتعهَّدونها بالزيارة حرصاً على أوشاج تربطهم بالأقرباء، والأرحام والأصهار، ووفاء لمرابع رتعوا فيها، ونشأوا بين مغانيها.

وكانوا ولا يزالون يُعنون بأحداث بلادهم، وقضاياهم ويشاركون في العمل لها حتى كوَّنوا لذلك جمعيات، ورابطات تجمعهم على شؤون بلادهم، وأسسوا لخدمة أوطانهم صحفاً ومجلات جعلوها موقوفة على شؤون بلادهم، وأنطقوا بعضها بالعربية الفُصحى في بلاد لا تعرف العربية؛ وأصدروا غيرها بلغة مهجرهم.. لتكون دعوتهم ذات أثر فعّال في جميع البلاد الأجنبية.

ولم تقتصر الحميَّة على النفر المهاجر فقد تعدَّتها إلى أبنائهم وأحفادهم ممن وُلدوا في أمريكا.. آثروا أن يطبعوهم على إيثار وطنهم الأصلي، وأشربوهم حبه.. فنشأوا يشعرون بشعور آبائهم، ويشاركونهم فيه الحب والإكبار.

فما بال بعضنا تُغريه الثروة، وتُنسيه ماضيه، وتصرفه عن واجباته نحو البلد الذي أنبت آباءه قبله، وتعهدهم بما يملك من ذخيرة.. ولا يزال يتعهد أهله إلى اليوم وذوي قرابته؟؟

أبعد هذا نكران يستأهل التسجيل، وجحود ينتهي بعده جحود؟

وأنكى من هذا أن صاحبنا الذي أنشأنا من أجله هذا الحديث أصبح في ذروة جاهه اليوم يستنكف أن يتصل به الغرباء من بني بلده، ويتمنّى –كما قيل لي– أن ينسى مواطنوه علاقته القديمة بموطنه الأصلي!!

قيل لي هذا فلم أستغرب كثيراً ما قيل لي.. لأن الجحود في الأرض ليس بدعة اليوم فهو قديم بقدم جميع الخلال الحقيرة في الحياة.

لا يزال أمامنا طريق طويل نحارب فيه الجهل الذريع، والخلال الشريرة.. وليس لنا من عدَّة في هذا إلاّ شيوع المعرفة شيوعاً شاملاً يعمُّ طبقات الأمة ويتخلَّل جميع صفوفها، وينطلق إلى بوادينا الشاسعة، ومناطقنا المترامية فلا يترك قرية إلاّ طرقها، ولا واحة إلاّ هبطها؛ ولا بيتاً من الشعر إلاّ نزل به.

إذا شاع العلم بيننا هذا الشيوع تكشَّفت أمامنا حقائق الحياة، واستنار أمامنا الطريق، وتكوَّن لأمتنا الوعي الحي والفهم البصير.

ليس من ينكر أن الجهل الذريع الذي أُطبق على بلادنا من عصور سحيقة تركها لا تُميز الأشياء على حقائقها، وعطَّل فيها ملكات الفهم والتعقل، ولا ينقذنا ونحن على أبواب نهضة جديدة إلاّ أن نُعنى بشؤون المعرفة عناية تفوق عنايتنا بجميع مرافق النهضة في البلاد!

التعليم هو الوسيلة الوحيدة التي تُوسع مداركنا، وتُنير أفهامنا وتعقل عقولنا، وتُعِدنا إعداداً صحيحاً تُرهف فيه أحاسيسنا وتؤهِّلنا لفهم الواجب في وجوهه الكاملة.

لا يهولنا أننا نخطئ الجادة اليوم، أو نسيء السلوك إلى صراطها، ولا يظُنَنَّ ظانٍ أن بعض خلالنا المستهجنة جِبلَّة تكوّنت بتكوِّننا، فقد سبقتنا شعوب كانت تعاني شراً مما نُعاني اليوم حتى إذا انبثق الفجر في سمائها وسطع العلم في أركانها استطاعت أن تستبين الطريق، وتستوضح الجادة؛ واستطاع العلم أن يصوغها من جديد.

دعونا نمشِ.. وحسبنا إغراء بالمشي جماعة الرائدين في الأمم الناهضة فقد رأيناهم يتكلّفون شظف العيش، وأوصاب الحياة في سبيل نظرية يثبتونها، أو فكرة يخترعونها، أو شبراً في الأرض يكسبونه؛ خدمة لبلادهم وإيثاراً لبني جلدتهم، فكم ضحَّى المجازفون، وكم تعرضوا لأشد الأهوال خطراً، وكم جالدوا في صبر ورضى بِراً بأوطانهم.

لم يؤهلهم لكل هذا إلاّ المعرفة التي صقلت أفهامهم، وأعدَّتهم لمواجهة الحياة..

فدعونا نسلك فيما يسلكون، ونمضِ إلى حيث يمضون.

دعونا.. نمشِ!!

أكانَ هذا مِنْ عَمَلِ الجان؟

دعونا نخطُ خطو المتقدمين.. لا نفكر بغير أسلوب العصر، ولا نحيا بغير حياة العصر.

إن نظرة عميقة إلى الأصول الصحيحة في ديننا تُبيِّن لنا المدى الواسع الذي يُتيح لنا التفكير التقدمي إذا أحسنّا التفسير والفهم.

خطب أحد الوعّاظ المسلمين في باريس يدعو إلى تعاليم الإسلام، فوقفت إحدى المستمعات ترجوه أن يكتب لها حجاباً يُعينها على إنجاب الذرية.. أسوة بما يفعله المسلمون في مثل هذه المناسبات فقال)) :يا سيدتي: إن عمل المسلمين لا يكون حجة على الإسلام في جميع الأوقات، كما أن أعمال اليهود والنصارى ليست حجة على تعاليم ما أُنزل إليهم.((

ثم قال ((وإن في موضوعك يا سيدتي ما أشار إليه القرآن في صراحة لا تحمل اللَّبْس فقال تعالى : (يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا) (الشورى: **49–50**).

فلا محل إذن للحجب التي يصطنعها بعضهم لينجب الذرية إذا كان قد سبق في علم الله أنه سوف لا ينجب)).

وليس في هذا ما يمنع من مباشرة الأسباب، لأن الأسباب المشروعة لا يطعن فيها الإسلام، ولا يمنعها بل يوصي بها ويُلزم، ولكنه يمانع؛ بل ويحارب جميع الأسباب غير المشروعة ممّا لا يقره عقل أو دليل محسوس.

ولو سايرنا ديننا فتجنبنا جميع الترَّهات مما لا يُقره عقل، لوفَّرنا للمسلمين أوقاتاً طويلة بدَّدناها في مئات مضت من السنين سعياً وراء أباطيل لا حقيقة لها. ولاستطعنا أن نجعلهم يستفيدون مما بدَّدوا في أشياء عملية يُسابقون بها مَن سبقهم إلى الهواء فركبوه، وإلى البحار فغاصوها، وإلى طبقات الأرض السفلى فاعتصروا خيرها.

في سبيل الشيطان آلاف الأفكار التي أنجبناها في عصور مظلمة. نظَّمنا في خلالها قواعد للاتصال بالجان واستخدام الشياطين وغيرها. وغيرها مما نستلهم فيه النجوم والكواكب، وعناصر الكون وراء المجهول.

أتُرانا كنا من السذاجة والغفلة بمكان ممتاز حتى استطاعت الشياطين أن تستهوينا بترّهاتها وأباطيلها، أم كنا حاذقين فلم نعجز عن امتلاك الجان واستخدامهم؟

كنت أتمنى لو يصادفني شخص واحد من ذلك الرعيل المُجِد، الذي أفنى حياته في الهمهمة والدمدمة، ليثبت لي بدليل محسوس أنه استطاع أن يحتكم على جنيٍّ واحد لا يزيد على حجم دُويبة صغيرة يُسخّره لشؤونه ويتحكم في مقدراته.. إذن لثبت لي أننا عمليون، وأننا فيما صرفنا من أوقاتنا في أجيال طويلة لم نكن مسرفين أو مبذرين، بل كنا من الحصافة بحيث نعرف كيف نعطي لنأخذ؛ وكيف نصرف من أوقاتنا ما يعود علينا بالعوض النافع.

حدثني عجوز قضى صدر شبابه دؤوباً في تجارته الواسعة حتى كوّن ثروته من أرقام تستحق الحسد فقال: وإني لفي عنفوان نشاطي إذ صادفني دجَّال

يَدَّعي تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب إبريز.. فاستهواني حديثه فيما يمتهن، واستوصفته طريقة العمل فلخَّصه لي في جملة مقتضبة.. فرأيتني أعقد العزم على تقليده فيما وصف، وأُواصل الدأب الذي ألِفته في تجارتي، فلم يحل الحوْل حتى جاء الدأب الزائف على جميع ما أملك!! وليتني بعد هذا اقتنعت بما جربت!!

قلت أوَتنوي أن تمضي فيما وهمت أكثر مما مضيت؟ قال إنني لا أزال بعد هذه السن الطاعنة مأخوذاً بما استهواني من صناعة الزيف ولا يمنعني إلاّ فراغ اليد!!

قلت كذلك دأب الأماني الباطلة تستهوي عقول السُّذَّج وتغريهم بزيفها الكاذب، ولا أمل لتبديد ما يلمع من برقها الخلب إلاّ في انقشاع الغشاوة السائدة على أبصار الضالين.

وأمثال هذا المخدوع في الشرق عدة لا يوفيها الحصر.. أضلّتهم نظريات سجلها الدجّالون والممرورون في عصور مظلمة تعاقبت عليها أجيال وأجيال ولا يزال سحرها يلمع في أبصار غَشِيَها التمويه، وأعماها الخِداع.

لا يعلم إلاّ الله كم ورثنا من آلاف الكتب التي بحثت عن قبائل الجن الأحمر، والجن الأصفر وملوكهم المتوَّجين وخدمهم المسخَّرين، ولا يعلم إلاّ الله كم دوَّنت هذه الكتب من (أوفاق للجلب) والجذب، وخدمة العاشقين والمدنفين، وسجَّلت طلاسم بلغة من غير لغات الأرض.. بعضها يُعالج الأسقام والعلل، وبعضها يُعالج الجنون وأوهام النفس، وبعضها يفتح الكنوز

المخبوءة، أو يُسهِّل الأرزاق المعسَّرة، وبعضها يحول دون فتك السيوف والأرماح، وبعضها يساعد على امتطاء بساط الريح، أو يُعين على تجميد المياه للراكب والماشي؛ وبعضها لخدمة جميع الغايات ومختلف المآرب.

تُرَّهات أضاعت عمر الأجيال في بلاد الشرق، وضيّعت من فرص الحياة عليه ما لا تعوِّضه الأجيال.

ورثنا هذه الكتب من عصور الظلمة، وعكفنا عليها عكوف المجانين فتركنا غيرنا يتحيّن الفرص ويكتسب الوقت.

لعلّهم لم يرزأوا بالشعوذة التي رُزئنا بها، ولم يرثوا هذه الأرتال من التدجيل الذي ورثناه.. فاستطاعوا أن يحتفظوا بأذهانهم صافية وعقولهم صحيحة.. استطاعوا أن يمرنوا تلك الأذهان على الاستنتاج والبعث، وأن يتركوا عقولهم تحتك بما يصقلها ويزيد في حرارة طاقتها فابتكروا لنا في الحياة ما يعجز عنه الجن؛ واخترعوا في مرافقها ما لا يقوى عليه الشياطين.

أكانوا يستخدمون الجان عندما نقلوا أصواتهم في الراديو من أقصى الأرض إلى أقصاها؟ أم كانوا يمتلكون المردة عندما ذلَّلوا الهواء لطائراتهم، أو البحار لماخراتهم، وأعماق المحيطات لغواصاتهم، وآفاق الأرض لتجاربهم الجهنمية التي أتاحت لهم امتلاك ناصية العالم وسودتها في جميع القارات؟

أكان هذا من عمل الأبالسة وإيحاء الجن وتعليمهم، أم كان نتيجة لتمرين العقول، واحتكاكها بالأمور الجسيمة والحاجة الملحة؟

ماذا صنع الجن لنا في عصور طال دهرها كنا فيها نُهمهم بأسمائهم ونُدمدم، ونُقسم عليهم بالأيمان المحرجة، والتوكيدات المغلظة، ونهتف بأسماء كبارهم وألقاب ملوكهم؟؟ أبنوا لنا طائرة واحدة نطوي بها أبعاد السماء أم صنعوا لنا رصاصة واحدة نقاتل بها الأعداء؟؟

أنجادل بعد هذا في ترَّهاتنا، ويتبجح بعضنا فيُغرينا بإلغاء عقولنا لنستمع إلى أحاديثه في مبلغ استفادتنا من امتلاك الجن وتسخير العفاريت، وضرورة استعانتنا بالطلاسم والأوفاق؟ أم نقنع اليوم بما جرَّبنا، ونكتفي بما نالنا، ونحاول أن نجعل من مآسينا دروساً ننتفع بها في مآتي أيامنا؟

ومن غريب المفارقات أن أجدادنا في الشرق اتَّسع خيالهم قبل مئات السنين. لكل ما نتمتع به اليوم من مخترعات الغرب، فألَّفوا القصص التي جعلوا أبطالها يطيرون في أجواز الفضاء، ويغوصون في أعماق البحار ويطوون المسافات الشاسعة في ساعات محدودة.. اتَّسع خيالهم لكل هذه الظواهر فأتاحوها لأبطال قصصهم في صور تغاير الصور الملموسة التي نشاهدها اليوم في وسائل نقلنا، صور اخترعوا لها حكايات عن بساط الريح والعفاريت الطائرة التي كانت كما تقول حكاياتهم تضطلع بهذه الأشياء فتنقل أبطال قصصهم عبر السحاب، أو تطوي بهم الأقطار كما تطويها لنا السيارات.

اتّسع خيالهم فافترضوا ما شاء لهم الافتراض حتى إذا نهض الناهضون في الغرب استطاع هؤلاء أن يُحيلوا كل تلك الخيالات إلى حقائق نلمس اليوم فيها الطائرة والباخرة والغوّاصة والسيّارة وما لا يحصى من وسائل المدنية.

أمّا نحن ورثة أولئك الذين تخيَّلوا فقد اقتصرنا على ما ورثنا من أوهام ولم تتَّسع مداركنا لفكرة واحدة نُحيل فيها ما افترضوا إلى حقيقة نلمسها.

إن ألوف الاختراعات التي ابتكرها الغرب والتي أتاح لنا استعمالها في نطاق استنزف أموالنا، لم نستطع إلى اليوم أن نشارك في ناحية بسيطة من نواحيها، ولم نستطع أن نحقق طرفاً واحداً من أطرافها.

هل من عِلَّة حالت دون نشاط عقولنا واحتكاكها بالنظريات النافعة الحية؟.. أجل فلا يزال سحر الشرق القديم يُغشي وعينا العام، ولا تزال فينا أغلبية تُعلِّق آمالها بمُعمِيات فيها شيء من خوارق السحر، نستعرض فيها قوى الجان وكفاءتهم لعمل المستحيلات التي نتخيلها، ولا تزال منا كثرة ساحقة تحفل بكتب القصص المفعمة بأخبار السحر والسَّحَرَة، وحكايات المَرَدة الطائرين وعرائس البحر الغائصات، ولا يزال إلى اليوم كثير من أطفالنا يستمعون إلى أحاديث العجائز عن ملوك الجان السبعة وعن الكنوز المطمورة في الأقبية، وعن طاقية الاستخفاء وعن الحجب التي يندفع حاملها إلى معترك السيوف فلا يناله شيء من أذاها.

وبالرغم من أن الإسلام حارب في عصره جميع هذه الترَّهات وتَوعَّد السحرة والمشعوذين، إلاّ أن العقلية الشرقية ما لبثت أن عادت إليها خرافتها واستطاع المشعوذون أن يعودوا إلى كهانتهم، وتدجيلهم.

لا نريد أن نُزكّي العقلية في الغرب من كل هذه الترَّهات، فهي لا تزال في بعض نواحيها تستسلم لدعاة الدجل عندها. ولكن تقدُّم العلوم الكونية

والبحوث النفسية والدراسات المستفيضة في طبيعة الأشياء، أعانت على تحديد وباء الخرافة في حيِّز ضيق.

وعنايتهم بتسخير عناصر الكون واستخدام طاقته في منافعهم كشف لهم عن حقائق دقيقة كانت الخرافة تستغل غموضها فيما تُشيعه من تدجيل.. فهل يُواتينا اليوم الذي نواجه فيه حقائق الحياة، وتتَّسع فيه آفاقنا لدراسة الكون من نواحيه المستعصية، وتتوافر لدينا الملكة العلمية التي تُعيننا على الابتكار، وتساعدنا على مساهمة الغربيين فيما تنتج عقولهم الخصيبة من مخترعات في شتى أغراض الحياة؟؟

دعونا نتفق على تصفية أذهاننا من جميع ما علق بها من أدران الماضي المظلم، ونُعِد عِدَّتنا لدراسة الحياة في توسُّع يؤهلنا للإنتاج العقلي الذي سبقنا إليه غيرنا. وعندئذ سنرى أن جميع الأوهام التي عاشت الخرافة في ظلها أجيالاً ستتبخر، ولا تقوى على مواجهة الشمس!!

وأخيراً.. دعونا.. نمشِ!!

نجند العَفَاريتِ لِقتَالِ الطّائِراتِ النّفّاثة

نحن لا نُنكر وجود الجان، وقد حدثنا القرآن عنهم، ولا نُنكر طاقتهم وقد روى الله عن أحدهم أنه يأتي بعرش بلقيس: قال أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك، وقال مَن عنده علم الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتدَّ إليك طرفك!!

لا نُنكر هذا بعد أن حدَّث به القرآن، وبعد أن قامت آلاف الأدلة يشتغلون باستحضار الجن واستخدامهم، ولا أجزم بصدقهم ما لم تؤيّدهم براهين ملموسة.

إذا كان العلم في ذاته صحيحاً فليس كل مَن يدَّعيه لنفسه صادقاً في عصر كثر فيه الدجّالون وزاد تفننهم في الخداع والتضليل.

وإذا كان العلم صحيحاً فليس معنى ذلك أن نُحيل إلى عمل الجن كل ظواهرنا ومقدراتنا، فلا مريض عندنا إلاّ لمسه شيطان، ولا مجنون إلاّ مسَّه جنّي، ولا خلاف بين شخصين إلاّ نسبناه إلى السحر، ولا أمر ذو بال إلاّ إستعنّا عليه بالهمهمة والدمدمة.

إننا نُنكر هذا التعميم، ونرفض أن تتلقى جميع مقدراتنا عن تصرفات الجن، وأن تُناط جميع حركاتنا بمشيئة الأبالسة، وأن نضع عموم مقاليدنا في أيدي المشعوذين، ففي ذلك تعطيل لسنن الكون، وفيه تواكل يصرفنا عن العمل في دنيانا بالأسلوب الذي شرَّعته الحياة للعاملين فيها!!

لا أدري، ولا الدجّالون أنفسهم يدرون لماذا ننسى الهمهمة والدمدمة عندما تحم الحاجات، وتَدْلهِمَّ الأمور.. لماذا يقصرون أعمالهم في تسخير الجن على ألاعيب تافهة، ولا يوسعون اختصاصهم ليساعدوا على علاج ما ينتاب بلادنا من أمور جسام؟

إننا نسمعهم يتبجحون بقدرة شياطينهم على خرق العادات، وقوتهم على امتلاك أعتى النواصي!! فما بالهم يسكتون عن خصومنا من رجال الاستعمار؟ لماذا لا يُسلِّطون سحرهم على قلوب الظلمة فيزلزلوها، ويرسلون شياطينهم على الفجرة منهم فيؤذوها؟

لماذا لا يُجندون عفاريتهم وأبالستهم ليدفعوا جيوش الغاصبين عن أي بلد إسلامي مغلوب، ولماذا لا يُرسلونهم عبر السحاب ليقاتلوا الطيارات النفّاثة، والقاذفات الفتّاكة، ويأمرونهم فيغوصوا قيعان البحار والمحيطات ليطاردوا آلات الدمار تحت الماء، ويبثّوا معاني الهلع في قلوب العادين والغاصبين؟

وإذا كان دجّالونا لا يريدون أن يُتعبوا عفاريتهم كثيراً في الدفاع دوننا، فلا أقل من أن يسخّروهم في بناء الآلات التي نستطيع أن نقابل بها أعداءنا، أو يندبوا بعضهم على الأقل ليختلطوا بعلماء الذرة، فيسرقوا منهم أسرارها، وينقلوها لننتفع بها، وبذلك يعوضوننا بعض ما أفقدونا من حيويَّتنا. يوم عشنا مغرورين بفنونهم، متواكلين على همهمتهم.

إننا نُعيد ما سبق أن قلناه من أننا لا نُنكر وجود الجان، ولا ننكر سخرتهم فيما يتعلق بمشيئة الله.. ولكننا نُنكر الدعاوى العريضة التي كثر المتبجحون

بها، وتطاول المزيفون فيها، ونريد أن يبرز إلينا أحدهم ليثبت لنا أنه موهوب، وأن الله قد منحه الكفاءة اللازمة لاستخدام العفاريت، ولا يثبت لنا دعواه في هذا حتى يُجنِّد أمامنا عدداً ولو ضئيلاً منهم يستطيع أن يترك أثره في أي ناحية صغيرة يرد بها عتوّ العادين من المستعمرين في أقطار الإسلام.

اشتبكنا بالأمس مع الغاصب الدخيل في فلسطين، فاستطاع الغاصب أن يزيحنا عن مواقفنا. وأن يحتل بلاد إخواننا في الدِّين والعروبة، وأن يُمزقهم شرَّ ممزَّق فأين كان أصحابنا؟ وأين خدمهم وأعوانهم من العفاريت والجن؟

سيقولون إنها مقادير شاءها الله وكتبها على فلسطين فلا نقوى على تغييرها.. ولكن ما بالهم لا يقولون هذا في جميع ما يتعرضون له من مقدراتنا؟ أليست جميع حركاتنا متعلقة بمشيئة الله؟؟ أليس أمر المعتوه الذي مسَّه عفريت متعلق بما كتبه الله وشاء؟ فما بالهم يحاولون دعاوى علاجه ولا يأبهون لعلاج ما كتب الله علينا من ظلم عدونا؟؟

ألم يعلموا أن الله شرَّع لنا أن نأخذ بالأسباب في كافة أمورنا. وأن نعدَّ لخصومنا ما استطعنا من قوة؟ فما بالهم يُراوغون؟

أمحرومون هم من صدق الوطنية حتى قبلوا التخلّي عنا في أحرج مراكزنا؟ أم هم مزيَّفون لا يملكون من علومهم إلاّ ما يصلح للشعوذة وينفع للألاعيب الباطلة؟

ما أحلى أن تتشجعوا. فالموقف أحرج من أن يحتمل الخداع. إننا نتمنى أن تكون لفنونكم إثارة من علم صحيح فتُعلنوا ذلك في ثَبات وصراحة

وتُهيِّئوا أنفسكم لنواجه الغرب بعلومكم، فنستطيع أن نقول له: أنت أيها الغرب غرب، ونحن أهل الشرق شرق وسوف لا نلتقي!!

نريد أن نقول: إمضِ أيها الغرب بجامعاتك، وأكاديمياتك، وعلمائك ودراساتك المستفيضة التي أنتجت لك جميع الوسائل التي ابتكرتها لحياتك والتي أعانتك على امتلاك ناصية العالم.

امض أيها الغرب فيما اخترت لنفسك من سبيل، ودعنا وما نملك من وسائلنا الخاصة، فنحن في غِنى عن علمك وما أنتج!! وحسبنا هذه المواهب التي نسيطر بها على ما تجهل من عمار الكون.. حسبنا سحر الشرق نُسخِّر به قبيلاً من الجن، نُخصِّصه للنقل الجوي فيُغنينا عن طائراتك ونفّاثاتك، وحاملات الطائرات في بلادك.. وقبيلاً آخر نختصُّه للبحار في أعماقها وما تحت أعماقها، يعمل ما لا تعمله جميع آلاتك في هذا الميدان!!

وقبيلاً ثالثاً نسخره ليعمل عمل الكهرباء، أو يصنع ما لا تصنع، أو يجنِّد ما لا تجنِّده أساطيلك وسفنك!!

دعونا نقل هذا للغربي إذا كان دجّالونا ليسوا دجّالين، وليسوا مخادعين.. وبذلك نستغني عنه في جميع ما يمتلك، ونقوى على مواجهته مواجهة الندِّ للند: هو بعلومه ومبتكراته.. ونحن بسحرنا وقوتنا في استخدام المَردة والشياطين!!

سنستطيع أن نصرخ في وجهه: لا ظلم بعد اليوم، ولا استعمار فأقلامنا الساحرة تقوم مقام الجيوش المدمرة، وسلطتنا على الجن تخدمنا بأوسع ممّا تخدم الآلات من جميع أنواعها في بلاد الغرب!!

سنستطيع أن نقول هذا أو أكثر من هذا إذا كانت فنوننا في السحر صادقة، وملكة دجَّالتنا صحيحة.. أما إذا كنا مشعوذين، وكانت أقلامنا السحرية لا تملك إلاّ اللعب، وإلاّ التضليل؛ فما بالنا نُعلّق الآمال عليها ونصرف أيامنا من أجلها في عبث جاهد وزيف ضال؟!!

نحن لا نريد التوسُّط فإمّا أن تكون فنوننا في السحر نافعة لجميع مطالبنا من الحياة، مفيدة في كل مواقفنا من خصومنا في الغرب أو لا تكون كذلك. فإن كانت الأولى فلنُعلنها صرخة ضاربين بعلوم الغرب من جميع الأنواع عرض الحائط، وإن كانت الثانية فدعونا نطلق هذه الترَّهات وننسى أباطيلها ونُوفر أوقاتنا للدراسات المنتجة، نتعلمها من خصومنا لنبني بها ما يبنون، ونصل في نهايتها إلى ما يصلون.

أما أن نُسلِّم قيادتنا للسحرة في بعض، ونتركهم في بعض.. نُبيح لهم أن يتجهوا فيما يملكون من مواهب في مواطن اللعب، حتى إذا جدَّ الجد تواروا عن أعيننا وراء حجبهم الكثيفة.. فذلك يشبه عبث صغار الأطفال!!

ليتهم يتشجعون بعد هذا فيعلنوا استعدادهم لقيادتنا، أو يعترفوا بعجزهم عن إبلاغنا الهدف فيوفِّروا علينا جهوداً نحن في حاجة ملحّة إليها، وأوقاتاً لا يعلم الله متى نستطيع أن نُعوِّضها!!

أيها القوم! حمت الحاجات، واشتد الأزم، وأبلج الحق.. فاختاروا السبيل وليس بعد اليوم اختيار!!

ويا أيُّها القادة في جميع أقطار الشرق وبلاد الإسلام. قولوا كلمتكم الأخيرة. فلقد تكالب العالم حولنا، وبتنا ضائعين وحدنا، لا نعرف إلى أهدافنا سبيلاً واضحاً.. ارفعوا مشاعلكم إلى أقصى ما يصل إليه الارتفاع، وأعلنوا دستوركم في أفصح ما يعبر به إعلان، لنعرف الجادة، ونتبيَّن معالمها.

نريد أن نعرف بعد اليوم نوع السبيل الذي تختارون.. لنوجه طاقتنا نحو هدف واحد وغاية واحدة.

قولوا أأنتم جادون فتقضوا على دعاة الدجل والتواكل، ورسل الفشل بين صفوفنا، وتتسلموا قيادنا بأيدٍ قوية!! متعاونة؟؟

أم أنتم هازلون لنقنع بما لدينا من ترَّهات، ونتمتع بمضجعنا بين المشعوذين والزائفين واللاعبين؟؟

أكبر ظني أنكم جادّون، فاحزموا أمركم!!

ودعونا.. نمشِ!!

وأهمَلْناهم . . فَأَعْددناهم للسّجُون

كنتُ في حديث بالأمس مع صاحب لي.. تناولنا فيه رجال المهن عندنا، وما ينالهم إذا ضعفوا عن الكسب من هوان وذلة.

قال صاحبي: لقد رأيت بعيني رجالاً قضوا حياتهم في أعمال الطين والحجر حتى إذا شاخوا ودقت عظامهم وعجزوا عن الكسب راحوا يلتمسون العون من الناس، ويسألونهم المساعدة.

وقد ترفَّق صاحبي في الوصف لأني أعلم أن كثيراً من أصحاب المِهَن يضطرون إلى استعطاء الناس، وسؤالهم القوت إذا عجزوا عن التكسُّب لضعف أو مرض.. وهو ذنب لم يقترفه إلاّ أصحاب المِهَن أنفسهم فقد قضوا زمانهم جيلاً بعد جيل دون أن يفكر أحدهم فيما يضمن مستقبله وإخوانه، ويؤمن حياتهم فيه.

وضمان المستقبل لا يكلّفهم إلاّ أن يثبتوا وجودهم ضمن نطاق مهنتهم ويعترف بعضهم بحقيقة البعض الآخر.. فيضعوا أيديهم في أيديهم ويتعاونوا على العمل لصالح المهنة، وتأمين أصحابها.

إذا اتفقوا على هذا استطاعوا أن يؤسسوا لهم صندوقاً يسند ضعيفهم، ويقيم عاجزهم، ويتولى أيتامهم، وفقراءهم.. ولا يكلّفهم الصندوق إلاّ قروشاً ضئيلة يفرضها يومياً على كل فرد منهم ما دام كسوباً، قادراً على العمل في حدود تحتملها طاقته، ولا يعجز عن أدائها.

هذه القروش الضئيلة إذا تجمعت في صندوق النقابة لأي مِهنة من المِهن استطاعت الاستمرار، واستطاعت أن تكون مبالغ لها قيمتها، وأثرها الطيب في تكوين الجماعة، واستطاع أصحاب المِهنة أن يتَّخذوها ذخيرة لأيامهم القاسية؛ وأزمانهم.

ونظام الصناديق في المهن يمرن أصحابه على التعاون، ويُدربهم على التنظيم الجماعي، ويساعدهم على التعارف، وتبادل الآراء في المفيد النافع، ويجنبهم كثيراً من العبث الذي يزجّون به أوقاتهم الفارغة.

وهو وسيلة من وسائل المجتمعات الحية يستطيعون أن يهيئوا بواسطتها لهم كياناً له قيمته في الأوساط والمجتمعات على اختلاف طبقاتها.

ولا يُعد صندوق المهنة مُجدياً على أصحابه إلاّ إذا باشرته أيدٍ أمينة موثوق بأمانتها، وأشرفت على حساباته أقلام دقيقة تعرف من نظام التوريدات والنفقات ما تصون به كرامة الصندوق وتحفظ أمواله.

وليس من شك في أن سمعته السليمة، وسمعة القائمين بأعماله في نظافة وشرف ستسهِّل للمحسنين من أبناء الطائفة سبيلهم إلى الإحسان، وتنشِّط فيهم روحِ البذل، وتدفعهم إلى التسابق والتنافس بِراً بعشيرتهم الأقربين ورجال طائفتهم الأدنين.

ويستطيع الصندوق إذا صِينت أمواله، وضُبطت حساباته، أن يساهم في رقي البلاد فيؤسس مشروعات تُفيد البلاد وتعود عليه بالربح الذي يوسع على أصحابه، ويُغدق عليهم من خيره ومنافعه.

إذا ظفرت كل مهنة بمثل هذا الصندوق على مثل هذا الأساس القوي.. فقد ضمن أصحابها لأنفسهم حياة مؤمَّنة ضد الشيخوخة، والهرم والضعف، والمرض، وضمنوا لأولادهم -إذا تركوهم يتامى- جهة ترعاهم، وتُشرف على مصالحهم وتعليمهم.

حدثني صديقي عن صناديق النقابات في بلد متمدِّن، فقال: كنت أنزل ضيفاً على عائلة من أوساط الناس تتكوّن من أم وجدة وصبية صغار كان أكبرهم يبني قصوراً من الطين على ضفاف البحيرة، وقد لاحظت أنهم ميسورو العيش رغم فقد عائلهم فاستغربت هذا.. ولكن عجبي لم يطل عندما علمت أن والدهم كان يشتغل في السمكرة. فلما تُوفي عن يتامى وأمهم وجدتهم كفل صندوق نقابته عيش العائلة بموجب نظام الصندوق.. وبذلك أغناهم عن الحاجة وذل السؤال.

وأخبرتني الأم أن الصندوق سيظل كافلاً لهم حتى يستوي أولاد الابن الأكبر ويقوى على تحمل العبء تحت إشراف المهيمنين على النقابة.

هذه صورة مصغرة عن الحياة المضمونة التي تكفلها صناديق المهن في البلاد المتمدنة.. ولست أُغالي إذا قلت إن مثل هذه العائلة لا مندوحة لها من ذل السؤال وآلام الفاقة لو لم ترعها نظم ممتازة في بلد راقٍ حفي بنظام المهنة.

كم من عمال روَّعنا منظرهم وهم يمدّون أيديهم بالسؤال بعد أن بلغوا السن التي عجزوا فيها عن التكسُّب! فلم يشفق عليهم أناس استفادوا من

شبابهم يوم كانوا أقوياء، ولم تهتم بهم بيوت غنية استفادت من سواعدهم لغناها، وبنت على كواهلهم كثيراً من أمجادها.

وكم من يتامى شوهدوا يذرعون الطرقات أسمالاً تؤلم الفؤاد، وتحزُّ في النفس.. وربما نشأوا مشرّدين ترهقهم الفاقه، ويسيء الحرمان سلوكهم فيُسيئون إلى بلادهم أكثر مما يُسيئها المجرم العاتي، ويصبحون عالة على أمنها ورقيِّها.. ولا ذنب لهم أو لبلادهم إلاّ أنهم فقدوا آباءهم العاملين ففقدوا بذلك مَن يعولهم، ويشرف على تهذيبهم، وتعليمهم، ولم يحفل بهم المجتمع، فتركهم لحرمانهم.. يقاسون من ذل الحاجة وسوء السلوك ما يؤهِّلهم للخطر ويعدُّهم للسجون.

وليس بين هؤلاء وبين استقامتهم كجنود نافعين في الوطن إلاّ أن يكفلهم المجتمع، ويتيح لهم حقوقهم في الحياة في صور إعانات ينظِّمها صندوق المهنة في ترتيب يكفل لهم العيش، والتعليم الذي يقيم أودهم.

ليس منّا إلاّ من يعرف جيراناً له أقارب أو أصهاراً يكابدون من أمراضهم أو ضعفهم ما يُبكي الفؤاد القاسي، وقد كانوا قبل ذلك عاملين في حقل الحياة، قادرين على التكسّب والربح.. حتى إذا امتص المجتمع دماءهم، واستنفد حيويتهم.. تركهم منسيين في زواياهم يستدرّون شفقة المتصدِّقين، ويسألونهم في إلحاح وانكسار.

فما يمنعنا ونحن أمام هذه المآسي المفجعة أن نعتبر بما كان، وأن نستفيد به كدرس عملي يفتح عيوننا على مبلغ ما تعانيه أيادينا العاملة... فنعقد

العزم ابتداء من يومنا هذا على تأسيس صندوق المهنة، وتنظيم موارده بصورة تكفل إنقاذ هذه الطوائف المظلومة، وتُتيح لها نصيبها في الحياة السعيدة.

ما يمنعنا أن يقوم في كل مهنة مفكر واحد يدعو إلى سَنّ هذا النظام فيجمع حوله من يعتدُّ بإخلاصهم ومروءتهم، فلا تنفضُّ جلسته الأولى بهم حتى يكونوا قد أعدّوا طلب الترخيص بذلك من الحكومة، وسيجدون من الحكومة ما يشجعهم على مثل هذه الخطوة التي يضعون بها أقوى لبنة في صرح هذا التقدم.

أيُصدق مستمع أنه لا يوجد إلى اليوم بين المِهن الشائعة في بلادنا –وهي كثيرة– مهنة واحدة أدركت حاجتها إلى تأسيس مثل هذا الصندوق، وشرعت في العمل له رغم أن بين رجال المهن عندنا من تتَّسع آفاقه لأبعد من هذا المرمى، وبينهم من يفهم من حقائق الحياة الراقية ما لا يفهمه رجال من أمثالي؟

أيُصدق مستمع أن بيننا من المِهن كمهنة الطوافة ما يربو عدد أفرادها على الألوف، وأن من رجالها مثقَّفين تفخر بهم المجامع، ومجربين لا يقصر مداهم عن فهم حقائق الحياة، ومع هذا فإن مهنتهم كانت ولا تزال معرَّضة لأفظع المآسي شدة وألماً.. يتجلّى ذلك في عدد كبير منهم أدركه اليأس فحال دون نشاطه فلم تشفق مهنته على عجزه، ولم تشاركه الكفاح لعيشه..

ولو حظيت المهنة بصندوق يجمع فتات أغنيائها كقرض لازب لاستطاع الصندوق المقروض أن يقيم أود الطائفة، وأن يُعين فقيرها ويواسي محرومها؟

نعم إن لدى المطوّفين ما يشبه هذا الصندوق إلاّ أن موارده أضعف من أن تقوم بأود الطائفة، وتكفل شؤونهم الحيوية.. إنه صندوق محدود لا يقوى على شيء إلاّ أن يمد يده إلى الفقير بما تمده يد المتصدِّق في بضع ريالات لا تغني عن فقر، ولا تجدي إلاّ لأكلة دسمة تتمتع بها عائلته الفقيرة في يوم واحد.

إنه ذنب الصندوق، فإنه لم يؤسس يوم أُسِّس ليكفل تبعات لها قيمتها بين المطوّفين.. ولو فعل لألزم الطائفة مبالغ ذات قيمة فعّالة تترك أثرها في كيان الطائفة.. فتُعين الفقير على نفقاته السنوية، وتساعد الشاب على تأسيس مجال يضمن له الربح، وتقدم للأرامل والأيتام ما يغنيهم عن سؤال الناس، ويُهيِّئهم للدراسة والتعليم، والحياة الراقية الشريفة.

ولا يستوي لمثل هذا الصندوق أن ينهض بمثل هذه الأعباء، ما لم يراجع المؤسِّسون أو خلفاؤهم عليه نظام تأسيسه من جديد فيفرضوا له الأتاوات المُجدِية التي تُعِدُّه لتحمُّل الأعباء الثقيلة التي تواجه طائفته، ويُنظموا نفقاته في بنود واضحة تتكفَّل برواتب مستديمة تساعد العائلات الفقيرة، ويتسع اختصاصه إلى الإشراف على يتامى الطائفة، وتعليمهم، وتوجيههم، ولا تتوانى عن مساعدة شبابهم بالسُّلف أو الإعانات التي تفتح أمامهم مجال العمل المجدي.

إذا استطاعت مثل هذه الطائفة أن تؤسِّس مثل هذا النظام واستطاع أصحاب المهن غيرها أن يحذوا حذوها، فإننا سنُثبِت بأمثال هذه الخطوات أن نهوضنا الجديد نهوض عملي له ما بعده.. فهلموا نجرؤ على مثل هذه الخطوة..

ودعونا.. نمشِ!!

ضرب عمرو زيداً

ويحلو لنا أن نتابع الحديث مع أصحابنا رجال المِهن، فنتمنى عليهم أن يكونوا حيويين في كل ما يمتُّ إلى مهنتهم بسبب.. فوارث المهنة عن أبيه أو معلّمه لا يجب أن يجمد على ما ورث، بل عليه أن يفكر في شؤون مهنته في ضوء ما يعرف من تفكير أجداده.. فقد كان أجداده يعيشون في عهود لا صلة بينها وبين القرن الذي نعيش فيه إلاّ بالذكريات، والرسم البالي إن كان في الذكريات وباليات الرسوم ما يستحق الحفاوة.

أذكر أني قرأت قصة عن والٍ تركي يُسمى داود.. كان يعيش في مصر، وكان يعجب لجماعة العلماء من النحويين وهم يقتصرون في أمثالهم مهما تعددت مناسباتها على زيد وعمرو في صور ورثوها شيخاً عن شيخ.. كان يُعيب عليهم فيما يبدو قِلَّة حفاوتهم بالتجديد، وتمسُّكهم حتى في الأمثال بالحَرفيَّات التي انتقلت إليهم من أجيال سالفة.. فكان يستدعي الرجل منهم إلى مجلسه ويستقبله في إجلال، ثم يسأله عن العِلَّة في تمسُّك أمثالهم النحوية بزيد وعمرو دون أن تتطرق إلى أسماء أخرى من ملايين الأسماء الشائعة بين الناس، ثم عن العِلَّة في تخصيص زيد بمركز الضارب، وعمرو بمركز المضروب في أسلوب لا يجرؤ جريء على تبديله أو تغييره.. فلم يخطيء أحدهم مرة ليقول: (ضرب عمرو زيداً)، لأن في ذلك تحريفاً عن الحرفيّات التي ورثها عن مشايخه، نقلاً عن مشايخهم ومشايخ مشايخهم إلى الطبقة الأولى التي كان لها الفضل في اختراع هذه الأمثال.

كان الوالي يُعيب على جماعة العلماء جمودهم على هذه الحرفيّات، ويتمنّى في تهكُّم أن يفسر له أحد المشايخ الذين يستدعيهم عِلَّة تشبثهم بإيراد هذا المثل بالذات، ولكنه كان لا يجد عند من يستدعيه ما يروي غِلَّهُ (نعم.. نعم.. إنها أمثلة يا حضرة الوالي ذكرها الشيخ عن شيخه عن شيخه).

فيستشيط الوالي غضباً وينسى تجِلَّة الشيخ فيأمر بجلده وحبسه، ثم يستدعي غيره وغيره فلا يجد غير هذا الجواب فيستأنف الوالي أوامره بالجلد والحبس حتى اكتظَّ السجن بهم.

واستُدعي إلى مجلس الوالي في نهاية الأمر شيخ مجدِّد كان يميل إلى الابتكار وصرف النكتة فقال: أيُّها الوالي. إن عمراً لص يستأهل الضرب المستمر من يد زيد. فقد جرؤ على اسم مولانا الوالي، وسرق واوه ليضيفها إلى اسمه.. فاغتاظ زيد من هذه الجرأة، وانطلق يضربه في كل مكان يصادفه.. لهذا فلا لوم على النُّحاة فيما يمثلون.

فضحك الوالي لبراعة النكتة ورشاقة الاستنتاج، وأمر بمكافأة الشيخ، وأطلق سبيل زملائه من السجن تقديراً للنكتة البارعة.

وأعتقد أن القارئ الكريم لم يفتْه موقع النكتة التي أوردها الشيخ.. فإن الوالي كان يسمى داود. وكلمة داود كان يجب ألاّ تكتب إلاّ بواوين ولكنا نختصر ونحذف أحدهما ونُعطيها لعمرو اعتباطاً لأن كلمة عمرو ليس في

نطقها واو، ولكننا نضيف إليها هذه الواو فجعل الشيخ عمراً لصاً سرق واوه الزائدة من داود فاستحق أن يضربه زيد باستمرار.

هذه الرشاقة في الاستنتاج المُضحك لها قيمتها عند جميع المحترفين الحيويين يقابلها الجمود الحرفي الذي استاء منه الوالي التركي، والذي بُلينا به نحن في جميع ما نحترف من علوم أو فنون أو مِهن.

كان جبران خليل جبران يقول)) :إذا رأيت جاراً لك يستنبت في حقله وردة صفراء، وآخر إلى جانبه يستنبث وردة حمراء.. فحاول جهدك أن تطعم اللونين بوسيلة تبتكرها لتستنبت وردة تجمع بين الحمرة والصفرة.((

هذه هي العقلية المبتكِرة التي ندعو إليها جميع المحترفين والعاملين في حقول حياتنا من أي لون، وهذا هو روح التجديد الذي ينقصنا لنثبت وجودنا بين أمم الأرض الحيّة.

ورث المطوّفون عندنا نُظماً أكل عليها الدهر وشرب، وتقاليد أصبحت لا تمت بصلة إلى القرن العشرين. فما بالنا نحمد على ما ورثنا من نظم؟ وما بالنا نقدِّس تقاليد ظهر أنها لا تستأهل التقديس؟

كان أجدادنا يستوحون تقاليد العصور التي عاشوا فيها فيسيحون بين الأقطار التي عرفوا حُجّاجها يوزعون البركات فيها بين مُحبيهم، ومُريديهم، ويتقبّلون هداياهم كما يتقبَّلها رؤساء الطرق ومشايخ السجادة. فهل بقي إلى اليوم أمر البركة في أسلوبه الذي كان شائعاً في الأمصار؟ أم عمَّ التعليم جميع القرويّين وفتح عيونهم على أشياء جديدة أنستهم كل ما كان؟؟

وهل بقيت النظرة الوقور التي كان ينظرها الناس إلى مشايخ السجادة ورؤساء الطرق وأمثالهم من المرتزقة باسم الدِّين على حالها كما كانت؟ أم بات الناس ينظرون إلى ذلك النوع نظرهم إلى الدجّالين والمشعوذين؟

والواقع أن جلّ القيم الأخلاقية إن لم نقل جميعها قد تغيرت معاييرها بتغير العصور، وأن كثيراً من المصطلحات التي تواضعت قواميس القدامى على احترامها أصبحنا في حاجة إلى تغييرها بغير ما وُضِعت له إن لم نجرؤ على حذفها من القواميس.

فما بالنا نجمد ونأبى إلاّ أن نلبس (الجبب) التي فُصِّلت لغير جيلنا؟ أنعيش بين المعاصرين اليوم بأجسامنا ونترك أرواحنا تعاصر أمماً أبادها الزمان وقضى عليها؟ أم أننا نعرف صلتنا بالعهد الذي نحيا فيه ولا نجهل ظروفه وملابساته، ونعرف كيف نُماشي أندادنا فيه؟

إن عامتنا يقولون)) :كل زمان يعطي حُكمه((، وهي نظرية تبلغ شأوها الرفيع بين الحُكم.. فمن السخف بمكان أن أركب الشقدف في عهد السيارة، وأمخر البحر (بالسنبوك) في عهد الباخرة، وأدهن بالجنزبيل في عهد الكينين والأسبيرين.. كما أن من السخف أن أستمع إلى نظريات (سيدنا في الكتاب) وأنا من متخرجي الجامعة، وأن أبني بيتي على غِرار ما بناه جدي، وأترك أحدث ما أنجبه المهندسون في عصري.

أجل (كل زمان يعطي حكمه)، فقولوا هذا لقادتنا من كبار المطوّفين، وقولوه لسادتنا من حفَّاظ النظام العتيق، وقولوه لكل مطوّف يأبى إلى اليوم

إلاّ أن يلبس جبة جدّه، ويمضي في سياحته بين القرى يوزِّع بركاته على الساخرين، ويقبل الهدايا من المتصدِّقين.. قولوا لهم هذا ولا تنسوا أن تُلفِتوا نظرهم إلى مجال العمل في بلادهم التي أصبحت تغصُّ بالروّاد والآفاقيين من كل جنس، ومن كل لون.. قولوا لهم إن الروّاد الآفاقيين استطاعوا أن يأخذوا أمكنتكم في ميادين بلادكم، وأن يطردوكم إلى قرى الآفاق لتستعطوا الناس وتستدرّوا رأفتهم!!

قولوا لهم هذا، ثم صيحوا فيهم أن يجتمعوا، وأن يتساندوا، وأن يدرسوا أحوالهم كما تعوَّدوا أن يدرسوها.. بشرط أن يصدقوا العزم في هذه المرة، وأن يبيتوا النية على العمل المجدي الذي لا يشوبه الصخب، ولا تثبطه الأغراض.

قولوا لهم تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم.. أن نصون كرامتنا من العبث، وأن نجدِّد من تقاليدنا ما أبلاه الزمان، وأن نبتكر لمهنتنا ما يتماشى مع أحدث النظم.

قولوا لهم إننا لا نريد أن نقرر دستوراً معيناً ولا أن نفرض قواعد بذاتها ولكننا نريد جديداً نستوحيه من حاضرنا، ويتفق في جملته وتفصيله مع مصالحنا.. في ضوء ما ابتكرته أحدث النظريات.

قولوا لهم هذا، ولا تنسوا أن تسألوا المتحرِّجين منهم في أناة ورفق لماذا يتحزَّبون ضد التجديد؟ ولماذا يأبون إلاّ أن يُصرّوا على ما ورثوا من قديم؟

أهو استجرار لتقاليد عفا عليها الزمان؟ أم استدرار لمصالح خاصة يخشون أن تضيع بين أعمال الهدم والبناء؟

قولوا لهم هذا، وترفَّقوا، فإن الكبرياء والعناد أهم مميزات دعاة القديم في كل زمان.. ونحن في حاجة إلى استدراجهم بما يخفِّف غلواءهم أكثر من حاجتنا إلى تحدِّيهم!!

قولوا هذا، ولا تُقصروه على جماعة المطوّفين، فإننا لم ننشىء ما أنشأناه من قول لنُخِص به المطوّفين وحدهم، ولكن السياق أبى إلاّ أن يمضي في ساقيتهم لبروزهم بين أصحاب المهن عندنا، وتميُّزهم على جميع الطوائف بيننا!!

إذن فنحن لا نريد أن نختصَّ المطوَّفين وحدهم بما نقول، بل نتمنى لجميع طوائفنا ما نتمنّاه لهم، ونرجو منهم ما نرجوه من المطوّفين.. نتمنى أن تسود العقلية المبتكرة جميع المهن بيننا من الحداد، والسمكري، والنجار، والبنّاء، إلى الترزي، والخياط، والنقّاش، والزرّاع.

أما التِجارة فلا أعتقد أننا في حاجة إلى التدليل عن مبلغ تأثر نجاحها بالعقلية المبتكرة، لأن وسائل الدعاية التي لازمت أطوار التجارة في شتّى بقاع العالم المتمدّن أثبتت ضرورتها لرواج هذا النوع من الأعمال في الحياة، ولأن جمال العرض في أسلوبه الشائق المبتكَر أعطاها مركزاً لا تناله إلاّ عقلية مرنة.. تقبل التجديد، ويلذُّ لها الابتكار.

أنرى هذه العلاقات النظيفة، وهذه المعاملات التي تتسامى إلى درجة ممتازة من الاستقامة والشرف في جميع أعمال التصدير والتوريد بين التجّار في أكثر بقاع العالم المتمدن؟؟

إنه –مع كل أسف– لم يكن تديُّناً أو تخلُّقاً بأخلاق الديانات التي يدين بها التجّار والصنّاع على اختلاف نِحَلهم في البلاد المتمدّنة بقدر ما هو أسلوب في العرض، وتحايُل لطيب السمعة، ودعاية يُراد بها الشهرة.. هي في مجموعها تجديد في التجارة، وابتكار في المعاملة؛ أثبتت التجارب ضروريتها لنجاح البيوت الكبيرة التجارية والصناعية.

فهلاّ يليق بنا –ونحن أجدر منهم بهذه الخِلال واستجابة لديننا– أن نُعنى بهذا التجديد، ونُساعد سمعتنا على اكتساب الأحدوثة الطيبة؟

أجل.. وإنه خليق بنا أن نستجيب لوصايا ديننا في الأمانة والاستقامة، وأن نُساير المجدِّدين ونُدرِّب عقولنا على المرونة والابتكار.

فإلى الأمام يا بني قومي..

ودعونا.. نمشِ!!

نحلم بالوظيفة. . وأن تهلّ قوافل الحجاج

ويستطرد البحث بنا إلى غير المهنيين من شبابنا الطامح الذي بدأ يعقد أمانيه على وظائف الحكومة، ويُعلق آماله على مراقيها، ويتخيَّل أنها الطريق الممهد الميسور إلى الجاه والغنى.

وهي فكرة إنّما تدل على عقلية محدودة النشاط، لا أثر فيها للحيوية الدافقة، الميالة إلى التجديد والابتكار.

كانت حياة الوظائف مضمونة العواقب مكفولة المورد.. يوم كانت مجالات العمل في بلادنا لا تتعدّى حدوداً ضيقة. أمّا اليوم قد غزتنا الحياة الجديدة، واتسعت أمامنا آفاق لا عهد لبلادنا بها. فمن الظلم لشبابنا المتوثِّب أن يضيق ذهنه أمام هذه الآفاق، ومن الظلم لآماله الطامحة أن يحدَّها بوظيفة كل مميِّزاتها أنها مكفولة الرزق.

إن الآفاق التي تسامعت بنهضتنا الجديدة، وقرأت عن كنوزها المفتوحة، واستطاعت أن تعرف أن بلادنا باتت مهيأة للعمل المنتج في كثير من ميادينها البكر الصالحة للنمو.. فأغرت الشباب الصالح للحياة بالهجرة إليها.. فغزانا المتوثِّبون يتأبطون بعض رؤوس أموالهم، وغزانا إلى جانبهم ألوف وألوف لا يملكون إلاّ أرواحاً فدائية، وعزائم جبارة. فاقتحموا ميادينا في شجاعة، وتركونا على الحواشي نفكر فيما تمنحنا الوظائف من علاوات وما يُسدي إلينا الحاج من إحسان.

حتى جيراننا من البلاد الشقيقة التي لا يزيد مستواها العلمي عن مستوانا إن لم يقل عنه، استطاعوا أن يُزاحموا أعمالنا في المجالات الصغيرة.. ابتداءً من أعمال الطين والحجر، وأشغال النِّجارة والحدادة إلى صب الأسمنت، وتسليك البيوت بالكهرباء!!

فأنت تشاهد اليوم جاليات حضرمية، وأخرى يمنية، وثالثة من التكارنة وغيرها، استطاعوا أن يقتحموا بلادنا من غير مهنة يُحذقونها، أو مال يعتمدونه.. فتوازعوا الأعمال المتوسطة، وما دون المتوسطة في البلاد، واستطاعوا أن يقفوا على أقدامهم، وأن يُكوِّنوا لهم ثروات بالتدريج، وأن يستبدّوا دوننا بجلِّ الأعمال الحرة إن لم تكن كلها، وبقينا في أماكننا نحلم بمرتب الوظيفة، وندعو الله أن يزيد في عدد حجاجنا!!

ليتنا نعلم أن بلادنا لا تكمل فيها نهضة ما لم نحذف مهنة الحجّاج من مكانها في صدر قائمة أعمالنا لنُضيفها إلى أواخر القائمة، وينسى شبابنا زهو الوظيفة، ويحيلونها إلى الضعيف المحدود.. الذي لا تتعدّى مراميه في الحياة إلى أبعد من نظَّارته الذهبية فوق أنفه.

أعرف فتىً كان قد فُتِن بحب الآلات الدقيقة وهو لا يزال في سني الدراسة.. فكان يشتري كل ما يمر عليه من ساعات قديمة (وقمريات) خربة و (شماسٍ) مكسَّرة ليُشغل وقته في تفكيكها وإصلاح ما خَرُبَ منها، وكان يُعيد بيع ما أُصلح بأرباح لا تشجِّع ولكنه كان يشعر فيما يفعل بلذة لا

تعادلها لذة، وكان يقول لي إن والدي لا يبخل بما يلزم لحاجاتي ولكن لذتي بما أربحه من عملي على ضآلته لا تُضاهيها لذة ما أتسلَّمه من أبي!!

وباعدت الحياة بيني وبين هذا الفتى من نحو ربع قرن، فلم أسمع من أمره شيئاً حتى بلغني أنه اليوم يملك ورشة ميكانيكية محترمة في إحدى مدن المملكة، وأن أعماله فيها تُدرُّ عليه أرباحاً لا تُدرُّها أرقى الوظائف العالية!!

وأعرف شاباً تخرَّج في مدرسة عالية يحمل في يده شهادة تخوِّله راتباً له قيمته في دنيا الوظائف، ولكنه كان طموحاً، فلم يغره الجو الحالم الذي أغرى كثيراً من شبابنا بحياة الوظائف، فافتتح محلاً صغيراً للتوريد، وشرع يكتب إلى الغرف التجارية في أنحاء العالم المتمدن يطلب إليها أن تُوافيه بما لديها من عناوين المصانع، فلما تجمَّعت لديه من ذلك جملة طيبة، كتب يطلب إرسال ما عندهم من نماذج، وأسعار، وشرع يتصل عندنا بكل تاجر يعرفه، أو يسمع عنه حتى استطاع على مر الأيام أن يكوِّن لنفسه مركز الوسيط بين الداخل والخارج.. وهو اليوم يقتعد كرسياً فخماً وراء مكتبه الخاص، مستنداً إلى خزانة حديدية مكتظَّة بالمبالغ المحترمة التي ربحها من كدِّه، والتي بنت له مركزه الاجتماعي الممتاز في البلاد.

وأعرف أكثر من شاب كانوا يحتلّون مناصب حكومية فضاقوا بحياتها الرتيبة المحدودة، ودفعتهم الجرأة على مغادرتها إلى معترك الحياة الصاخب، فأثبتوا صلاحهم، وتكشَّفت كفاءاتهم عن حقائق انتهت من نجاح إلى نجاح.

إن علاقة أكثر المجازفين الطارئين على بلادنا لا تتعدّى المصالح الرابحة، وإنهم على عنايتهم بأعمالهم بيننا لا يلبثون أن ينطلقوا بأرباحهم كلّما جدت مناسبة ليودعوها بنوكهم الوطنية، وينفعوا بها أرض أُمَّتهم.. أما بلادنا العاملة، وأما شبابنا المجازف، فلا مجال لنتائجهم وأرباحهم إلاّ في بلدنا العزيز.

سيقول اليائسون: ولكن أين هي تلك المجالات؟ وأين مكان المِهن التي تدعونا إليها؟

نحن بدورنا نستطيع أن نقول ولكن: ما قيمة العقليات المبتكرة، والأفكار التجديديّة إذا كنا لا نزال في حاجة إلى من يضع أيدينا على عمل نمتهنه، أو حرفة نصطنعها؟

إننا لا نكون خليقين بالحياة العالية التي نتمنى أن نحياها إلاّ إذا سابقنا غيرنا من الجاليات القائمة بيننا فيما تبتكر لنفسها من أعمال.. فقد شهِدنا أفرادها يقتحمون في بلادنا ميادين ابتكروا كثيراً منها دون أن يقولوا لنا أين مكان المهن؟ وأين مجالات الأعمال؟ ودون أن يطلبوا إلى أحد أن يضع أيديهم على ما يصنعون!!

وسيقول المترفون: أيجوز في نظركم أن يصطنع الشباب المثقف أعمالاً لا تليق بمكانته العلمية، أو يزاول مِهنة لا تشرِّف مقامه الثقافي؟

ونحن بدورنا نستطيع أن نقول: منذ متى جعلتم التعليم وسيلة قاصرة على التكسُّب؟ لماذا لا نتعلم للعلم نفسه؟ ونواظب على مدارسنا لننتهي منها

إلى ثقافة عالية نرفع بها قيمتنا الخاصة بنا، ثم ننسلُّ إلى خِضم الحياة فنُزاحم فيه بمواهبٍ مصقولة، وثقافة تؤهِّلنا، وتوسِّع آفاقنا فيما نمتهن، دون أن تغرينا بالأجواء الحالمة فوق كراسي الوظائف، ومكاتبها؟

إن رجال الأعمال في أوروبا من الميكانيكيين والكيميائيين، وأصحاب الوِرَش الصغيرة، والنسّاجين، والخيّاطين والنقّاشين ليسوا من الطبقات الجاهلة أو غير المثقفة.. لأن أكثرهم يحمل أرقى الشهادات، ولا يستنكف أن يُزاول أي مِهنة يصادفها، وكثيراً ما يستعمل ثقافته وملكته في الفهم لفائدة ما يمتهِن.. فإذا بالورشة تتطور إلى مصنع، والخياطة إلى معمل، ومتجر، والميكانيكية إلى معدات ثقيلة. تنتج وتصدِّر، والنقاشة إلى فن يتسامى وتعلو شهرته.

ولو ظلت آمالهم منوطة بشهاداتهم لباتوا يتسكَّعون على أبواب الوظائف، أو يُلاحقون السيّاح كما نُلاحق الحجّاج مستدرّين مروءتهم، ولأمسوا حيث كانوا مثل ما نُمسي اليوم، ولما سمعنا بأسماء المخترعين منهم، والمبتكِرين، والباحثين في أحدث النظريات، ولما تمتَّعنا بما نتمتَّع به اليوم من وسائل أنتجتها قرائحهم، ومستحدثات أتقنتها أيديهم!!

فإذا سادت هذه الروح بين أوساطنا، واستطعنا أن نبث في فتياننا وشبابنا فكرة العمل الحر، فإن بلادنا ستحظى بالمنتجين من أبنائها الغيّورين على مصالحها وسمعتها، وعندئذ سنقوى على البروز بين الجاليات التي زاحمتنا على موارد الرزق عندنا، وسنستطيع أن نتولّى مصالحنا بأيدينا ولا نُتيح

الفرصة لغيرنا، ونبقى كما نحن اليوم، لا هم لنا إلاّ التوظُّف أو تطويفة الحجّاج.

إن مدارسنا مُطَّردة النمو، مستمرّة في الانتشار، وإن عدد المتخرجين بشهاداتهم العالية منها يتزايد كلما مرت السنون. فإذا ظل أمرنا على هذا الحال، وظلّت فكرة التوظُّف أُمنية كل شاب في مدارسنا كما نُلاحظ اليوم.. فإن النتيجة المحتومة أن نتكتَّل عند أبواب الوظائف، ونتزاحم على عتباتها. وسنجد في نهاية الأمر أن دوائر الحكومة لا تستطيع أن تستوعب هذا العدد الذي يتضخَّم كلما مرَّت سنة.. وعندئذ سنُعاني ما لا يُطاق، وسنُقاسي من زيادة العرض على الطلب هواناً ورخصاً لا يقبله حر مثقَّف.

تعالوا نُلغِ هذه الروحِ التي تسود طلابنا في المدارس، والتي تصوِّر لهم حياة الوظيفة لمَّاعة مشرقة، ونُحاول أن نبث فيهم في سن مبكرة أن الحياة أوسع من أن تُناط بكرسي ومكتب، وأن في آفاقها من أنواع المجازفة وألوان الأعمال التي يبتكرها الشاب المُجِدُّ لنفسه ما يُغري بالاقتحام، ويُفضي إلى الجاه والغنى.

ولا تنسوا إلى جانب ذلك أن صناعتنا في تطويف الحجّاج مهنة أكل عليها الدهر وشرب، وأنها كانت عزيزة المنال رفيعة الجانب يوم كان الحجاج يُقدِّسون ما يمنحهم المطوِّف من بركات، ويوم كان آباؤنا من المطوِّفين يشعرون بمعاني هذه البركة في نفوسهم.. أمّا اليوم وقد تغيرت النظرة إلى حقائق الحياة وكادت تُلغي البركة بمعانيها القديمة من قواميس الحياة، وحلَّ

محل المطوِّفين القدامى شباب عادوا إلينا من كلياتهم في الجامعة يحملون أفكاراً جديدة لا تمتُّ إلى ما تعوَّد أسلافنا بسبب، فإن خدمة الحجّاج بشكلها وتقاليدها الحاضرة سوف لا تصلح لأن يمتهنها جيلنا الجديد إلاّ إذا نُقضت من أساسها، وبُنيت في نظام يتّفق مع ما تبنى عليه الحياة اليوم.

فإلى أن يقتنع المسؤولون عنها بضرورة تجديدها، يتعيّن على نشئنا الجديد أن ينساها ولو إلى حين، ليشق طريقه في الحياة بين المجازفين من أبناء الجاليات الطارئة؛ وألاّ ينسى أنه أحق بهذه المجازفة من كل طارئ.

دعونا يا قوم من تعِلات لا تقدِّمنا إلى الأمام خطوة، وتعالوا نعتمد على سواعدنا في الحياة، وننسَ حياة التواكل في المكتب أو بين الحجّاج ونمضِ فيما مضى فيه معاصرونا من أمم الأرض.

هلموا بنا..

ودعونا.. نمشِ!!

أأعجلك يا رجل!..

دعونا نمشِ في نشاط وقوة، فقد انبلج الصبح، وأوشكت الشمس أن تغمرنا من الحدود إلى الحدود، وتكوي مضاجع المتراخين منا.

كنتُ في نقاش لي من يومين مع بعض أصحابي، فجاء ذكر الناهضين من أمم الحياة، وطفقنا نقارن بين تواكلنا ونشاطهم حتى استطرد الحديث بنا إلى ذوي العاهات والعاجزين.

إنهم هناك لا يعترفون للعاجزين بعجزهم، ولا للناقصين والمكسورين بما نالهم. لا لأن لكل علة عندهم علاجاً فقط.. بل لأن لكل ناقص لديهم محاولة يستطيع أن يعوِّض بها ما ناله من نقص!!

إن الأعمى لديهم لا يعدم وسيلة للتعليم، والتعليم الكافي.. فلديهم مدارس خاصة بالعميان تلقِّنهم كثيراً مما يتلقى المبصرون من فنون وعلوم، علاوة على كونهم قد استحدثوا لهم طريقة يكتبون بها، ويقرأون بحروف بارزة، فلا يفوت الأعمى أكثر ما يناله المبصر. بل إن كثيراً من العميان ظفروا من النبوغ والشهرة بما يحسدهم عليه المبصرون.

واحتالوا للصم والبكم فاختاروا لهم أساليب يتلقَّنون بها معاني الحروف، ويفهمون الكلمات والجمل، فتمَّت لهم القراءة المستقيمة، أو ما يشبه المستقيمة.. حتى إذا انتهوا بهم إلى الحد الذي استطاعوا أن ينتهوا بهم إليه نقلوهم إلى صناعة تتَّفِق مع استعدادهم، ولا تبخل عليهم بالكسب الوفير الذي يغنيهم، ويسمو بهم عن أن يكونوا عالة على ذويهم أو أقاربهم.

وفعلوا مثل هذا في الأبتر والأقطع والأعرج، فساعدوا كل نوعٍ بما يتفق وعلته، واخترعوا لكل ذي عاهة ما يُصلحه ويُعينه على مسايرة الناس في الحياة ويقوّيه على العمل المنتج في كثير من ميادين الربح.

فماذا فعلنا لأصحاب العاهات عندنا؟ ماذا فعلنا للأعمى والأعرج والأبتر والأقطع والأصم والأبكم؟ هل تبرَّع أحد أغنيائنا فانتدب مَن يدرِّس الطرق المتَّبعة في العالم المتمدِّن لمساعدة سائر المنكوبين بعاهاتهم، وشرع ينشئ على حسابه الخاص، أو حساب زملائه من المحسنين بيوتاً تؤوي هذه الطوائف وتعلِّمهم وتدرّبهم على الأعمال التي تُغنيهم عن استجداء الناس؟

إن أقصى ما نفعله للأعمى أن نحاول تحفيظه بعض آيات القرآن، وندرِّبه على استعمالها كأداة للتكسُّب في أسلوب لا يتفق مع جلال القرآن، وطريق لا تليق برجل يريد أن يحترم نفسه بين معارفه ولداته.

أما الأعرج، وأمّا الأقطع والأبتر، وأمّا الأصم والأبكم، فقد تركناهم جميعاً لتصاريف الأيام، توجِّههم أحداثها حيثما شاءت وكيف شاءت.

حرام علينا أن نترك ضِعافنا لأحداث الأيام تصرفهم فيما تشاء، ونراهم يألمون لحرمانهم من الحركة النافعة في الحياة فلا نصيخ لآلامهم ولا يبدو علينا أي أثر يدل على عنايتنا بشأنهم كإخوان وشركاء لنا في هذا الوطن.

إننا نفخر بكوننا مسلمين، ولكن جمودنا في مثل هذه المواقف لا يعطي عنا فكرة طيبة إذا قيس بدأب غير المسلمين على عون الضعفاء من أمثال هؤلاء وحرصهم على مساعدتهم وتشجيعهم.

إن المتقدِّمين في جميع العالم المتمدِّنين يشعرون بأن أصحاب العاهات لديهم أعضاء في مجموعِ الوطن، وهم من أجل هذا لا يسمحون لهذه الأعضاء أن تظل مشلولة لا يُستفاد منها لصالح البلاد، وإنهم إلى جانب هذا يرون أن العناية بكل ضعيف عندهم إنسانية يسمو إليها كل مهذَّب، دقيق الإحساس.. فماذا نقول في شأننا؟

أنقول إننا غير تقدُّميين، وإننا من أجل هذا لا نُبالي لأوطاننا أفقدت هذه الأعضاء المشلولة أم لم تفقدها؟

أم نقول إن إنسانيتنا لم ترتفع بعد إلى الدرجة التي يجب أن يرتفع إليها كل حساس مهذب؟

إننا نُجِلُّ أنفسنا عن كل هذا.. لأننا نعلم أن وطنيَّتنا لا تقل عن وطنياتهم، وأن شعورنا بإنسانيتنا لا يقل بحال عن شعورهم ولكن وعينا العام لم يستوفِ إلى اليوم نجاحه الكامل.

كنتُ قبل اليوم أمرُّ في طريقي بأحد العميان وقد اتَّخذ له ما يشبه الدكانة الصغيرة، جمع إليها أنواعاً من المسلِّيات، فيها الحمص، واللوز، والفستق، والفشار، وأنواعاً أخرى مثلها.. فكان يتسلم نقود الشارين ويغرف بيده في الميزان من الصنف المطلوب الذي يعرف مكانه لطول ما تمرَّن، ثم يرفع ميزانه فيجيد الوزن كما يجيد الحساب، وقد قيل لي إنه يربح من دكانه مبالغ طيبة يُنفق منها بسِعة، فكنت أُكبِر فيه هذه الحيوية التي أبت عليه أن

يستسلم للضعف الذي استسلم له كثير من أصحاب العاهات وذويهم وأقربائهم.

وكنت أعرف رجلاً آخر يسلق البليلة، واللوبيا، ويجعلهما في إنائين إلى جانب الخل وبعض المواد الحرِّيفة. التي تروّج تلك الأصناف بين مشتريها من الأطفال، وكنت لا أمرُّ به حتى أجد الزحام حوله من الصِّبية المتكالبين على بضاعته. وقد علمت فيما بعد أنه حاذق فيما يصنعه حذقه في عدِّ الدراهم وفرزها، وأن ربحه مما يبيع على ضآلته لا يقل عن ربح حاذق من المبصرين.

هذه حيوية لا غبار عليها. وهي إن كانت محاولة ضئيلة بنسبة محاولات أصحاب العاهات عندهم، ولكنها على عمومها إذا قيست بإهمالنا الفاضح لبقية أصحاب العاهات منّا عُدَّت مَكرُمة تستحق التقدير.

دعونا نتوسع في إصلاح ما أفسدته الأمراض، ونتابع غيرنا فنهيِّئ من هذه الأعضاء المشلولة شيئاً نافعاً في حقل الوطن، وبذلك لا نُحسن إلى بلادنا فقط، بل نُحسن بجانب ذلك إلى معنوية هؤلاء المرضى ونبثُّ فيهم من الروحِ المعنوية ما يُعينهم في حياتهم ويساعدهم.

كما نُحسن بذلك إلى سمعتنا كأمة يقظة في نظر الأجنبي الذي يرتاد بلادنا، ويتلمَّس في جوانبها مظاهر الحياة الحيّة ودلائل الرُّقي.

كما نُثبت بذلك رقة أحاسيسنا، وشعورنا الرفيع بمعاني الإنسانية. بما في الإنسانية من كرم وعطف وحب للخير.

ولا تكلفنا العناية بهؤلاء المرضى شيئاً مستحيلاً، فالمعروف أن الأبكم لا يعجزه العمل في أي حقل من حقول الحياة يستطيع الاستغناء فيه عن الكلام، فجميع الأعمال اليدوية لا يعجزه إذا تدرَّب عليها أن يبرز فيها.. بل إنني لأذكر أنني كنتُ أعرف رجلاً من البكم يرتاد السوق العامة للخضار والفاكهة فيشتري ما يلزمه لدكانه الخاص دون أن يجرؤ أحد على خداعه في أسعارها.. فقد كان يرقب حركات شفاه المساومين، ويعرف منها كل ما له علاقة بالأسعار، وكان لا يعجزه إذا انتهى إلى دكانه أن يتفاهم مع عموم زبائنه عن طريق الإشارة، وكانت شهرته بالحذق، وميله إلى المرح يساعدان على إقبال الزبون عليه ويُعينان على رواج بضاعته أكثر من جيرانه.

ولا يبعد شأن الأعمى كثيراً عن شأن الأبكم، فإن شعوره بنقصه عن المبصرين يحفزه للعمل والعمل المنتج في كثير من ميادين الحياة.

وقفت يوماً بسيارتي في أحد الشوارع فإذا منادٍ خلفها ينادي يا صاحب الشفر 54.. خذني معك، فالتفت فإذا أعمى يستأذن في الركوب! فعجبت لمعرفته موديل السيارة دون أن يراها، فسألته عن ذلك، فقال إني تعرَّفت بالتمرين على جميع موديلات السيارات وأنواعها، وإذا صادفني اليوم سيارة واقفة فإني لا أخطئ نوعها، وموديلها. عندما ألمسها، فهل تستغرب هذا؟؟

قلت: ولكن قصتي أعجب من هذا.. فإنني بالرغم من كوني مبصراً فإني لا أميّز أي نوع من السيارات، ولا أعرف موديله، ولو أن سيارتي ضاعت

بين غيرها من موديلها أو غير موديلها، فإنه سيتعذَّر عليَّ معرفتها فهل تستغرب هذا؟ فما مَلَك أن ضحك حتى وقع على الأرض!!

هذا مبلغ استعداد العميان بعد البكم في الحياة. وإذا علمنا أن مِحنة النوعين أبلغ من محنة غيرهما من أصحاب العاهات ظهر لنا أن معاناتنا مع غيرهم سوف لا تُرهقنا نصباً كبيراً ولا تُكلفنا عناءً جسيماً.

إذا كنا عالجنا قبل اليوم شؤون هؤلاء المرضى بأساليب بدائية وفي نطاق ضئيل محدود. فهل يجوز لنا بعد اليوم ونحن في إبان صحوة جديدة أن ننسى واجبنا نحوهم، ونترك بلادنا تفقد في أشخاصهم الضعيفة أفراداً هي في حاجة إلى أثرهم في الحياة؟؟

دعونا نتابع غيرنا من أمم الأرض الناهضة فننتدب منا من يستقصي أحدث ما وصل إليه ابتكار المتمدِّنين في مساعدة هؤلاء لنقلِّده في بلادنا، وإذا كنا قد عُنينا إلى اليوم بانتداب المتخصِّصين في شتى نواحي العلوم والفنون فما يمنعنا أن نُضيف إليهم من يتخصّص في مثل هذه الناحية لنضيف إلى ميادينا الجديدة التي اعتزمنا فتحها ميداناً له قيمته في الحياة؟

أيقول بعد هذا متحذلق إننا لم ننتهِ بعد من شؤون الأصحّاء فما أعجلك أيها الرجل؟

إنها حذلقة لا يقرُّها عدل، ولا منطق، لأننا لا يجب أن نجرؤ على تصنيف الناس، ولا نقدمهم إلى الحياة إلاّ صنفاً بعد آخر، فالناس في نظر العدل

سواسية، وإذا وجب أن نخطو فلنبدأ بضعفائنا، أو يشملنا السير بجميع أصنافنا.

وإنها حذلقة لا يقرُّها منطق، لأننا لا يجب أن نستبعد نبوغ أصحاب العاهات بصورة تزيد نسبتها عمّا عرف بين غيرهم من الأصحاء.

إننا نهيب بأصحاب الغيرة من المتموِّلين وأصحاب اليقظة من المثقفين، وأصحاب الاختصاص من المسؤولين أن يُعيروا ضعفاءنا من هذا النوع لفتة صادقة، ينقذونهم بها ممّا امتحنوا به، ويبثّون بها في أرواحهم من المعنوية، وفي نفوسهم من الثقة ما يساعد على بروزهم بيننا.

نحن لا نُنكر أننا فيما نهضنا لا نزال عند الأبواب، كما لا نُنكر أن بلادنا التي أشقاها التأخر من ألف سنة لا تستطيع أن تقضي أوطارها طفرة.. نحن نعلم هذا، ولكننا نعلم أننا أشد ما نكون حاجة في خطوتنا هذه إلى النصيحة والتذكير فسيروا بنا.. سيروا بنا خفضاً ورفعاً.. سيروا بنا عنفاً وشداً.

إلاّ أن يغامروا في آفاق الأرض

لنمشِ في نشاط ومغامرة.. فقد دلّلت الأمم المغامرة على أنها حَرِية بالوقوف أمام الشمس، وأنها جديرة بالحياة الممتازة التي تحياها.

إن فتانا ولده أبواه في بيت العائلة فنشأ فيه، وألفه، وألف الزقاق والحارة، وربما ألف الحضرمي بائع الفول عند رأس الزقاق، والقهوة التي يجلس إليها أقرباؤه في الحارة.. فإذا صادفته مناسبة طلب إليه فيها أن يغادر بيته إلى مقر وظيفته في القرية النائية أو المدينة البعيدة عجز عن التلبية. لأنه ألِف بيته، وألِف أبويه، وألِف الزقاق والحارة اللَّتيْن تربّى فيهما، وربما أضاع عجزه عليه فرصة لا يستطيع أن يعوِّضها.

فيمَ كل ذلك؟

لأننا لم نألف المغامرة، ولم نتعوّدها، ولأن المربّين في البيت والمدرسة عندنا لم يبثّوا إلى اليوم في أرواحنا حب المغامرة وروح الفداء.

أمّا الأمم المتمدنة فقد درج أبناؤها على المغامرة والجرأة، والتلذُّذ بشظف العيش في الاغتراب.

ويكمل الفتى عندنا دراسته فيتعيّن انتدابه إلى خارج القطر ليلتحق بالكلية التي تعين التحاقه بها.. فيشعر بالوطأة القاسية، ويعاني أبواه من بعده آلاماً لا يصبر عليها إلاّ جلد.

ففيم كل هذا؟؟

لا شيء إلاّ أننا تعوَّدنا الركون إلى أمهاتنا في البيت، ومغانينا في (البرحة)، ولم نتربّ على حب المخاطرة، واقتحام الصعاب.

قلت لوالدة فارقها ابنها في رحلة لإتمام التعليم.. وقد شكت إليَّ آلامها من البُعد! قلت لها: ألا تعلمين أن عبد الله بن الزبير دخل على أمه يستأذنها في أن يجول جولته الأخيرة في الحرب، وألاّ يعود إليها من غد إلاّ مقتولاً فأذنت له وشجعته؟

قالت: أشجَّعته ليُحارب حتى يُقتل؟

قلت: نعم.. إنها شجَّعتْه ليحارب حتى يُقتل!!

قالت: إنها مجنونة!!

قلت: إنها الحياة قد فرغت عندما تسمّين ذات النطاقين مجنونة.. ولكنها لم تفهم!!

فقلت: وهل تعلمين أن عبد الله بن الزبير قال لأمه وهو يودعها الوداع الأخير: إنني أخاف يا أماه أن يُمثّلوا بي بعد أن يقتلوني. فقالت له: إن الشاة لا تبالي بسلخها إذا ذبحت، فامضِ إلى طلبك لتعيش إن عشت كريماً، أو تموت إن مت كريماً.

قلت لها هذا فقالت: إنها مجنونة، وإنك مجنون عندما تصدّق هذا!!

وهكذا هزلت الحياة حتى بتنا نُسمّي الباسلات المخاطرات مجنونات!

ذلك لأن البسالة التي من هذا النوع لم نتمرَّن عليها، ولم تتعوّد قلوبنا هذا الضرب من الفدائية الهائلة.. فإلى أن تمتحننا الحياة بهذا فإننا سنظل رهائن

لطراوتنا. وعندما يحلُّ اليومِ الذي نُصدِق العزمِ فيه على الوثوب ومجاراة غيرنا من الناهضين –وهو قريب إن شاء الله– فإننا سنجد أنفسنا أمامِ أمور واقعة تُهَيِّئنا للشجاعة، وتُرغِمنا على أخطر المغامرات.

ما رُسمت الأمريكتان على خارطة الدنيا إلاّ نتيجة لمغامرة طائفة من الناس محدودة العدد.. خاطروا بأرواحهم، وأبوا إلاّ أن يجوسوا غمار المحيطات التي لم يجرؤ عليها قبلهم بشر.. وعندما صادفتهم أهوال لا تحتملها طاقة إنسان في الحياة أبوا أن يعودوا حتى يُكلِّل الظفر هاماتهم، أو تبتلع الأمواج أجسادهم لقمة سائغة!!

ولقد كلَّل الظفر هاماتهم.. فاستطاعوا أن يُضيفوا إلى مجموعة الأمم على وجه الأرض شعباً له قيمته التي تُميّزه اليوم على جميع شعوب الأرض قاطبة ثراء وقوة ونفوذاً منقطع النظير!!

فلو تقاعس الروّاد الأولون وخافوا الاغتراب الذي نخافه، ولم يجسروا على المغامرة التي خاطروا بها.. لما عرف العالم اليوم شيئاً عن الأمريكتين العظيمتين.

وحديث المغامرين بعد هؤلاء الروّاد وقبلهم أطول من أن نستقصي أخبارهم فيه، وجميعها أخبار تدل على بطولة الفدائيين الأفذاذ، ومقدار جَلَدهم على تحمل المصاعب القاسية في سبيل آمالهم البعيدة ومراميهم!!

هذه أخبار الرحّالين العرب يكتظ بها تاريخ الإسلام المجيد.. تكلَّفوا من المشاق ما ينوء به أشد الرجال شكيمة وأوفرهم بأساً.. كانت أقطار الأرض

غير مدروسة بالشكل الواضح أمامنا اليوم وكانت مواصلاتهم لا تعرف الطيارة التي تُسابق النسور، والسيارة التي تنهب المسافات، والبواخر التي تجوب المحيطات.. ومع هذا فقد أبت عليهم مغامراتهم إلاّ أن يضربوا في أبعاد الأرض، ولا يستثنون منها معلوماً، أو مجهولاً، ولا يقف دونهم عواقب مهما جلّ هولها واشتدت صعوبتها.

وتبدو فدائيتهم بارزة إذا علمنا أن أقطار الأرض لم تكن كشأنها اليوم تشيع فيها لغة عالمية أو ما يشبه العالمية، فالرحّالة اليوم يستطيع أن يستخدم لغة واحدة أو لغتين من لغات العالم المشهورة في أكثر الأقطار التي يزورها، أما رحالة الأمس فلا يملك مثل هذه اللغة ليستخدمها فيما يطوف به فقد تباعدت اللغات حتى انفرد كل مصر بما يتكلم.

ولقد أبعد الرحالون فيما طافوا. فتغيَّبوا السنوات الطوال، حتى أن بعضهم غادر موطنه في سن الفتوَّة ولم يعد إليه إلاّ هرِماً يجرُّ خلفه من أولاده فتياناً وفتيات!!

قطعوا المسافات الشاسعة إلى آخر حدود الصين، وأواسط بلاد التبت، ومخروا البحار في سفن شراعية مهلهلة الأوصال حتى انتهوا إلى أكثر جزر اليابان والفلبين بعد جاوة وسومطرة.. وقيل إن بعضهم انتهى إلى أول شاطئ تتصل به أمريكا اليوم.

وتوغَّلوا في إفريقيا.. شواطئها وصحاريها وغاباتها المخيفة وبحيراتها المهولة، ومضوا في جميع القارات حتى عرفوا كثيراً ممّا كان مجهولاً يومها من بلاد أوروبا.

ولم تكن عِدَّتهم في هذا إلاّ بغالاً أو جمالاً تحمل أثقالهم إلى حيث تستطيع فإذا بدا لهم من ضعفها ما يخشون واصلوا سيرهم على الأقدام فصعَّدوا في الجبال الشاهقة، وخوَّضوا في المهاد المخيفة.

وقد قابل أكثرهم في رحلاتهم، قبائل لم تستأنس بعد.. منهم آكلو لحوم البشر، ومنهم قطَّاع الطرق والقراصنة، فلم تمنعهم هذه الأخطار عن مواصلة سيرهم.

ولقد تعرَّض بعضهم لشكوك المستبدّين وريبتهم، كما تعرَّض بعضهم للسجون والجلد، وكما تعرَّض بعضهم للقتل والاغتيال، فلم تحل كل هذه دون بغيتهم، ولم تُقْلِلْ من نشاطهم أو عزيمتهم.

وبذلك أسدوا إلينا معارف لا تقاس بها معارف، فقد كانت نواة طيبة لكل ما نعرفه اليوم من علوم الجغرافيا، وكانت باباً دخلت منه أوروبا إلى كثير ممّا وعته مجلداتهم عن أمم الأرض وتواريخها.

فلو جُبِل هؤلاء على ما جُبِلنا عليه من الطراوة، واستسلمنا له من حب القرار، وتحاشي الصعاب، لظلوا في بيوتهم لم يغادروها، ولما أنتجوا لتاريخ البشرية ما أنتجوه من معلومات.

وانتقلت هذه البسالة الممتازة من أجدادنا الأبطال إلى أمثالهم من أُمم الغرب اليوم.. فنحن لا نزال نسمع من أخبار المغامرين ما يُثير الدهشة ويدعو إلى العجب.

لم يتركوا صحراء قاحلة، ولا بيداء شاسعة، ولا مجاهل مغمورة حتى قطعوا فيافيها وطرَقوا مسالكها لا يمنعهم جوع ولا عطش، ولا تحول دونهم صعوبات مهما جل شأنها.

ومن الغريب أن أكثرهم ينتمون إلى أُسر مترفة لم تألف قسوة الحياة، وشظف العيش، ولكنها في نظرهم هواية يتلذَّذون فيها بما يقاسون من متاعب، وما يصادفونه من نصب ولا مانع لديهم من أن يركبوا إلى غايتهم الدواب الخشنة والمطايا المتعبة، وأن يواجهوا القرّ والحر، ويتعرضوا للحيوانات الكاسرة، والغابات الموحشة، وللقبائل المتوحشة.

أوغل بعضهم في إفريقيا، واخترق صحاريها التي لم تطرقها قدم، وقابل من أهوالها ما لا يتحمله جلد، وخرجوا من ذلك بفضول مسهبة أفادت قومهم. وفتحت عيون حكوماتهم على حقائق كان يجهلها حتى سكان القارة أنفسهم!!

وأوغل بعضهم في أستراليا، والهند، والصين، فانتهوا إلى آفاق لا يتصورها خيال، واكتشفوا من طبائع الأرض والجبال والأنهار فيها ما لم تتيسَّر معرفته للسكان أنفسهم، وبذلك خدموا بلادهم خدمات جليلة القدر، عظيمة النفع، ومشى رائدوهم في بلاد العرب فلم يتركوا شبراً إلاّ ذرعوه، ولا

صحراء إلاّ جابوها، ولا جبلاً إلاّ صعدوه، ولا مغارة إلاّ كشفوها، وانتهوا من تلك إلى بحوث لم يكتبها عربي من أبناء اليوم.

ومشى بعضهم إلى المناطق الثلجية التي لا يقوى على احتمال صقيعها إنسان فارتادوها، ودرسوا طبائعها وعادات أهلها، واتَّصلوا إلى ما يقرب من القطب الشمالي فمسحوا أراضيه، وكتبوا عنها ما لا يخطر على عقل بشر.. وهم لا يزالون يعقدون العزم على التوغُّل في القطب الجنوبي واكتشاف ما يهمهم اكتشافه في مناطقه السحيقة.

وتعدَّت جرأتهم إلى قياع البحار، وأعماق المحيطات، وبطون الأراضي وأجواف البراكين الباردة!!

وإذا أردت أن تعجب فاعجب لهذه المغامرات الجريئة القاسية التي لم تقتصر على الرجال وحدهم، بل شارك في كثير منها نساء دقيقات الخصور، رقيقات الأطراف، سائلات الأعطاف.

إنهنّ نسين رقّتهنّ، وضعفهنّ، وحاجتهنّ إلى حماية غيرهنّ، وخاطرن في بسالة منقطعة النظير نحو غاياتهنّ بقلوب لا تعرف الخوف.

أيليق بنا –ونحن نسمع في كل مناسبة من أخبار هؤلاء المغامرين والمغامرات ما يدعو إلى الاستهانة بالأخطار– أن نجمد في بيوتنا على ما تعوَّدنا، وأن ترتجف أفئدتنا فرقاً كلما دعانا داعٍ إلى خطوة جديدة نخطوها نائين عن مرابعنا، أو حركة جريئة نغامر فيها بعيدين عن أهلينا؟

نحن في حاجة إلى أن نقتبس من أعدائنا هؤلاء بعض أخلاقهم إذا أردنا أن نواجههم في الحياة، وأن نتعلم من مزاياهم الطيبة.. والطيبة فقط ما يؤهلنا للوقوف أمامهم موقف الند من الند. فإنهم لم يُخلقوا من طينة غير التي خُلقنا منها، ولم يتزوَّدوا في تركيبهم الجسماني بما لم نتزوّد به.

فإلى الأمام.. إلى الأمام.

ودعونا.. نمشِ!!

أعدّوا عدّتهم للرحلة إلى القمر

عقد أحد الأمريكيين العزم على ارتياد أصقاع الأسكيمو ليدرس عاداتهم، ويبحث عن طريق بينهم إلى القطب الشمالي، فذكروا له أن بلادهم يغطيها الجليد في معظم فصول السنة، وأن الرجل المتحضِّر لا يجد في تلك الأصقاع ما يأكله فيفقد حياته جوعاً وبرداً بين أقوام يبغضون الغريب، ولا يتورَّعون عن الإجهاز عليه.. فلم تثنِهِ كل هذه الأوصاف المفزعة عما صمَّم، وأبى إلاّ أن يمضي في برنامجه إلى الحد الذي رسمه.

وأسعفه الحظ فنجا لا بأعجوبة واحدة بل بجملة أعاجيب كادت أن تقضي على حياته في خلالها، وبذلك استطاع أن يقطع المسافات الشاسعة في أراضيهم في مدى شهور طويلة، قاسى في أثنائها من الشدائد ما لا يُطاق، وعاد من رحلته مزوَّداً بأعجب ما كتبه الباحثون عن حياة الشعوب المجهولة، وأسلوب حياتهم.. وقد نُشرت بحوثه في مجلات عالمية راقية، وعُنيت بترجمتها إلى لغات شتى أمهات الصحف في العالم.

صمد الرجل في رحلته لأهوال عظيمة، وفرغ زاده قبل أن ينتهي إلى ربع المسافة التي تضمنها برنامجه فلم يثبط الجوع همّته فيما عزم، وفاجأته شهور الشتاء فلم يجد في أصقاعهم كوخاً يتَّقي به غائلة البرد أو يتوارى خلفه من عواصف الثلج الثائرة في صورة لا تعرف الاستقرار.

وكان المفروض أن يقنع بما ناله من أهوال، ويرحم شيخوخته من عذاب الجوع، وسياط العواصف الثلجية التي ألهبت جسمه ولم يبلغ ربع الطريق..

فيستأنف عودته. ولكنها عزائم قُدّت من الحديد لا تبالي بالأخطار مهما بلغ شأوها ولا يفلُّ حدَّها الخوف مهما تجسَّمت مصائبه.

صمد الرجل فيما مضى واستطاع أن يغري رجلاً من الأسكيمو ليصحبه في رحلته، فعلمه الرجل كيف ينحت من تلال الثلوج المتراكمة كهفاً يتَّقي به غائلة العواصف عندما تتفاقم ثورتها، وكيف يحفر بين الكتل الثلجية خندقاً يأوي إليه إذا أعوزه النوم بين جدر لا يقوى على مسِّها لشدة بردها، فإذا يبست أطرافه من شدة الصقيع وشلت عضلاته عن الحركة.. حاولها بالفرك الشديد، والتدليك القاسي حتى يعود الدم إلى حركته في الشرايين بعد أن جمد من هول البرد.

ولمّا اشتد به الجوع ورأى الأسكيمي يصطاد الفقمة من تحت أطباق الثلوج ويلتهمها حية تسيل دماؤها على لحيته تقزَّز من منظره البشع، ثم ما لبث أن جاراه ليسدَّ جوْعَته بلحمها العفِن. وتعدَّدت المُجاراة حتى ألِف الفقمة، ولذَّت له فيها النكهة التي كان يتقزَّز منها.

وقد قضى على هذا المنوال القاسي أكثر من عام ونصف عام. ولم يعدْ إلى حيث بدأ حتى كان قد أعدَّ بحوثه في فصول تهالك أرباب المجلات العلمية. على شرائها بأثمان كان لا يحلم بعُشر معشارها.

ولا تقلُّ مغامرة غيره عن مخاطرته.. فقد خاطر عالم روسي بنفسه عندما شدّ رحاله إلى إحدى المناطق البركانية في شمال بلاد الروس يبحث حتى اهتدى إلى بركان خامد انطفأت جذوته من عهد طويل، وتركت أعماقه

تغور أميالاً في جوف الأرض، فاستقرَّ عزمه على متابعة الأغوار إلى نهايتها، ودراسة بطن الأرض تحت هذه الأطباق.

وكان يعلم أن جوْف الغوْر تحت أطباق الأرض لا يصلح للتنفس ولكن ذلك لم يُثنِهِ عما عزم فقد أعدَّ لنفسه جهازاً خاصاً يزوّده بالهواء النقى الصالح للتنفس إلى مدة افترضها كافية لرحلته تحت الأرض.

مضى الرجل فيما عزم واستأجر من رجال القبائل الأشداء نفراً يُدْلونه في جوف البركان العميق بعد أن اتَّفق معهم على ألاّ يغادروا فوهة البركان مدة غيابه في جوف الأرض، وأن يراقبوا حركة الحبال التي تصله بهم لينشلوه عند أول إشارة منه.

وقد تمَّ له ما أراد، واستطاع أن يتصل بأعمق أغوار البركان، وأن يمضي في شقوق الأرض إلى مسافات ممكنة درس منها ما عنَّ له أن يدرس، واطَّلع فيها على غرائب استنتج منها نتائج ظلَّت إلى زمن طويل محلاً لعناية العلماء المعنيين بطبقات الأرض.. وساومه بعض الهواة من الأثرياء في شراء مذكراته عن هذه الرحلة فأبى عليه حتى أغراه بالثمن الباهظ الذي أغناه فيما بقي من حياته.

وغامر غير هؤلاء فأعلن مغامر زوجه بأنه سيغادرها إلى رحلة طويلة في أعماق المحيط، يدرس فيها الحيوانات المائية، وأعدَّ لذلك أجهزته التي جرَّب صلاحيتها لمساعدته على البقاء أطول مدة تحت المياه في أبعد غور من المحيط.. متعرِّضاً لحيواناته الهائلة، وأسماكه المفترسة فلذَّ لزوجه أن تشاركه

هذه المتعة بين براثن الأخطار، فأبى عليها أن تزجَّ بجسمها النحيل فيما لا يحتمله إلاّ قوي شديد البنية، وحاولها ذووها لتوفِّر طاقتها المحدودة، فأبت إلاّ أن تجرِّب هذه المجازفة، ونذرت إلاّ أن تحاولها خدمة للعِلم ومساهَمة فيه!!

وكذلك مضى الزوجان إلى حيث استضافهما الماء في الأغوار السحيقة أياماً طويلة.. كانا في خلالها يصعدان إلى سطح الماء كلّما أرهقهما العمل الدائب في جوفه.

وقد قطعا في رحلتهما أغواراً واسعة، وجبالاً شاهقة، وطاردا من أنواع الحيوانات المفترسة ما عرَّضهما للموت المحقَّق مئات المرات، وشاهدا من عجائب البحر، وألوان مخلوقاته ما ملأ حقائبهما بأنواع من الصور والرسوم لا حصر لها، وعندما عادا إلى مستقرِّهما كانت مئات الألوف من المعجبين ينتظرون أوبتهما ليحتفلوا بنجاحهما المنقطع النظير!!

وزاد عدد المجازفين اليوم بزيادة ألوان المخاطرات التي تحتاجها آفاق العلم.. فهذا نفر من الباحثين يأبى إلاّ أن يكتشف الكواكب، ويتعرَّف على ماهيَّاتها معرِّضاً نفسه لجميع الأهوال التي تحول دون مآربه.. ولكنه يأبى أن يقنع إلاّ بما عزم.

وهذا نفر أعدَّ عِدَّته للرحلة إلى القمر، وآخرون يُعدُّونها إلى المريخ في سبيل نظريات تخيَّلوها لم تثبت أدلتها القاطعة ولكن لذَّتهم في المجازفة تُغريهم بالمستحيلات، وما فوق المستحيلات؛ وتعلمهم التشبث بأول بادرة تخطر لهم عن الحقائق الغامضة والآفاق المجهولة.

وإذا كانت هذه المغالاة في استقصاء الخواطر الغامضة والاحتمالات البعيدة تعرضهم في بعض الحالات للفشل، فإن الفشل في رأيهم علم جديد يُثبت لهم حقائق كانوا يشكّون في صحتها. وأنهم إن فشلوا إلى اليوم في الاتصال بالقمر أو المريخ، أو بعض الكواكب الغامضة.. فإن دأبهم على المجازفات طالما أفادهم في مواطن أخرى غيرها تنفع فيها المجازفة، وتنتهي بهم إلى نتائج ناجحة.

فهذا الطيران في أجواز الفضاء على متن سفن بلغت غايتها من الضخامة والقوة، ووصلت إلى هدفها من الأمان، لم يكن في أحد الأيام سوى مجازفة خطرة أقدم عليها شجاع باسل، وعرَّض نفسه لتجربتها في تضحية منقطعة النظير.

وعندما خطا الطيران خطوته الثانية لم يُقدم على اقتحامها إلاّ نفر جريء احتسب نفسه لخدمة العلم، وضحّى بنفسه في سبيل الصالح العام.

وقد تركت الخطوتان الأوليان في تجارب الطيران أثرهما دماء تسيل في كثير من البلاد التي سبقت إلى المجازفات بتجربة الطائرات. ولكن منظر الضحايا ما كان ليفت في عضد المجرِّبين، أو يحول بينهم وبين مغامراتهم المتواصلة.

فإذا تمتع أحدنا اليوم بمقعد وثير في طائرة فخمة تشقُّ به عنان السماء فليذكر باحترام أرواحِ تلك الضحايا التي قدَّمت أنفسها قرباناً لراحته، والتي قبلت أن تتبرعِ بأجسادها كمادة تعبِّد الطريق بها إلى الهدف الذي يُسعد البشرية اليوم، ويُوفر لها هناءتها وراحتها.

ولنقل مثل هذا أو أكثر من هذا في شأن جميع المخترعات التي يتمتع البشر اليوم بفائدتها وينتفعون بمزاياها.

إن جميع هذه الاختراعات لم تكن في أحد الأيام سوى فكرة تُراود رؤوس المتطرِّفين، أو المتهورين من رجال البحث والاستقصاء.

كانت فكرة لا يعلم إلاّ الله كم عانى المتهوِّر في سبيل تصويرها لتتبلور، وتأخذ شكلها الذي تخيَّله، وتعطي فائدتها المرجوَّة. ولا تسأل عن مدة التفريخ التي تتبلور فيها أي فكرة من هذه الأفكار، ولا عن مبلغ ما عاناه أصحابها في سبيل ذلك فتنكشف لك حقائق مؤلمة تستحق الحزن والرثاء.

كم حورب المخترعون، وأوذوا في سبيل أفكارهم؟ وكم قاسوا من أهواء الناس وسخريتهم؟ وإلى أي حد ثبتوا وهم يبذلون من أموالهم ما يملكون رغم فقر أكثرهم؟ وما عدد الضحايا التي احتُسِبت أرواحها في سبيل ذلك؟

إنه إحصاء لا يوفيه حصر.. أقدم عليه رجال ضربوا الرقم القياسي في صبرهم وجلدهم على الأهوال، وإنه إيثار لا يُضاهيه إيثار في الحياة اضطلع بأعبائه مغامرون لا يُبالون بالأخطار مهما تفاقم شرها؛ وتضاعفت آلامها.

على كواهل هؤلاء الروّاد الفدائيين قامت أمجاد الأمم التي تُباهي اليوم بمراكزها تحت الشمس، وعلى أشلاء أجسادهم مشت الكتائب التي حازت النصر لبلادها وبلغت بها غاية الهدف!!

فهل تسخو اليوم نفوسنا ونحن على غلوة من الفجر الجديد بإيثار بلادنا بأمثال هذه التضحيات التي برز فيها الفدائيون قبلنا، وبذل المغامرون من أنفسهم في سبيلها ما أسعد أممهم وبلادهم؟

ما أشد حاجتنا إلى شباب كامل الاستواء، ناضج المعرفة، لا يُبالي بالصعاب مهما اشتد أوارها ولا يخاف الأهوال مهما تفاقم شرها في سبيل أن يسعد بها بلاده.

فإلى الأمام أيها الشباب.. إلى الأمام..

دعونا.. نمشِ!!

شجاعة هيّأها التقدير السخي

علينا كمجتمع بدأ يشعر بكيانه في الحياة أن نعرف واجباتنا نحو نشئنا الجديد، فإذا تمنينا عليه أن يُجاري لداته من شباب الأمم الناهضة. فعلينا أن نعرف نوع الالتزامات التي تفرضها تلك الأمم على مجتمعاتها لتدعم بها شبابها، وألوان التشجيع الذي تُشحِذ به عزائمه.

هناك بيوت تجارية ترصد في موازناتها أرقاماً عالية لتشجيع العاملين في حقول تُعينها، وشركات قوية تأخذ على عاتقها مساعدة مَن خاض ميادينها، وتكلف صندوقها بما يتطلبه ذلك من نفقات.. وهناك من كبار الأغنياء مَن يُعلن وقف جزء من أمواله على فكرة يدعو إلى المسابقة فيها. فلا عجب إذا تدافع الشباب في الميادين النافعة وتسابقوا!!

فكَّر عامل في أحد مصانع الأقفال بفرنسا في طريقة تحبس المفتاح في قفله فلا يخرج إلاّ بعد أن يقفله.. فعرض الأمر على وكيل الشركة، ومنحه إجازة لمدة أسبوع كامل يبحث فيه الفكرة في داره أو في ورشة الشركة، ووعده إذا نجح بمكافأة تُقدَّر بنصف أرباح الصنف لعام كامل!! وقد نجح العامل، وقرَّر مجلس إدارة الشركة منحه المكافأة التي وعده بها وكيل الشركة.. فلما تسلَّمها استطاع أن يؤسس بها محلاً صغيراً للأقفال وهو اليوم يربح من بضاعته أضعاف مرتبه الذي كان يتقاضاه من الشركة.

وتقدَّم شاب إلى بعض المؤسسات الزراعية باقتراح يطلب فيه انتدابه إلى أمريكا الجنوبية لدراسة بعض أعمال التلقيح. فأصدرت المؤسسة موافقتها

على انتدابه وظلّت تُنفق عليه عن سِعة نحو سنتين، وتكفَّلت بمن يعوله من أهله. ولما عاد ممّا انتُدِب له كان قد أعدَّ مذكرات مطوّلة عن مشاهداته في الجهة النائية التي سافر إليها.. واشترت الشركة منه مذكراته بثمن غالٍ!! أغراه على استئناف رحلته، وبيع ما يُسجله عنها للمؤسسات الزراعية التي تهتم بأبحاثه بأثمان مرتفعة جعلته في عداد الأغنياء!! بعد أن كان لا يملك ثمن تذكرة الطائرة التي نقلته في رحلته الأولى.

وتكفَّلت كثير من المؤسسات الغنية بكثير من الروّاد الذين غامروا في أعماق إفريقيا وعلى شواطئها البعيدة وفي صقيع سيبريا، ورمال بلاد العرب الملتهبة، ومجاهل أستراليا، فقضوا السنوات يُجالدون الأهوال، ويُعانون من قسوة الحياة، وقلة الماء، ومهاجمة الوحوش ما يعانون في سبيل اكتشافاتهم! أو دراساتهم ما عنوا بدراسته من طبائع الأرض، والحيوان، والجبال، ومواطن المعادن والزيوت والثروة المائية التي تخفيها الأعماق.

ساعد المتموّلون على كل هذه المعاناة ببذلهم السخي، وأموالهم التي كانوا ينثرونها من غير حساب تشجيعاً للأيدي العاملة، والشباب المغامر، وأصحاب الأفكار الجريئة.

وما كان السخاء للسخاء وحده بقدر ما كان وسيلة إلى العمل المنتج الذي يعوّض أضعاف الأموال المبذولة ويعود على المشجِّعين بالأرباح الجزيلة الوافرة.

وإذا أردنا أن نُنصف المشجّعين.. فعلينا ألاّ ننسى أن أعمالهم في التشجيع لا تقتصر على ما يُدُّر عليهم من الأرباح فقط. بل إن كثيراً منها كان يخدم العلم للعلم نفسه.. فهنالك حفريات أثرية، وجهود أدبية بحتة، وأعمال إنسانية صرفة، تجد مَن يشجع على خدمتها بلا مقابل يعوِّض خسارتها.. ومن هذا القبيل جائزة نوبل التي أوصى بها نوبل قبل وفاته لتقدَّم إلى أقدر رجل أنتج في عامه إنتاجاً مُبرِزاً له شروطه الخاصة.. وهو لون من التشجيع له نظائر كثيرة في العالم. ولا غرض له إلاّ خدمة تهيأت للعمل المجدي النافع.

حدثني رجل من السودان قال)) :كنت أعمل سنين طويلة كرئيس للخدم في بيت أحد الإنجليز في أسمرة، وكنت أُلاحظ أنه يُنفق عن سِعة، ولا يعرف قيمة للمال الذي يُنفقه.. فكان يتبادر إلى ذهني أنه من ورثة أحد اللوردات الأغنياء، وأن ميراثه الضخم يُغدق عليه هذا النعيم، حتى علمت من طريق الصدفة أنه نشأ أول ما نشأ فقيراً لا يملك ما يقيم أوده، وقد أُغرم بالتنقلات في الصحارى، فشد رِحاله إلى الشرق، وساح في بعض أطرافه. ثم كتب إلى بعض الجرائد في بلاده يصف مشاهداته فرحبت بما كتب، وأرسلت إليه بعض المال الذي يساعده في مشاهداته.

ثم تسامعت به بعض المؤسسات العلمية فكلّفته بالسفر إلى الصحراء الغربية الكبرى ليدرس في آفاقها ما عنَّ له دراسته فلم يتقاعس لحظة، وشدَّ رِحاله إلى حيث كُلِّف.. وخاطر باجتيازها منفرداً لا يصحبه إلاّ سلاحه

الخفيف، وصندوق جمع إليه ما استطاع من الزاد. وراحلة اشتراها واستأجر بائعها ليساعده على الرحلة المحفوفة بالأخطار.

وما إن انتهت تقاريره الأولى إلى المؤسسة التي انتدبته حتى وافاه تفويض إلى أحد البنوك يُخوِّله سحب المبالغ التي تلزم لنفقاته دون تحديد. فنشطت عزيمته، وواصل خطواته، وأنفق عن سِعة على حركاته. ومع هذا فقد أبى أن يكلّف التفويض المفتوح له إلاّ ما اقتضته ضرورة العمل؟ ممّا جعل المؤسسة ترضى عن تصرفاته، وتبذل له المكافآت السخية!!

وتسامعت مؤسسات غيرها بخبرته في أمريكا، وبعض بلاد أوروبا فانهالت عليه التكاليف في شروط سخية، وبذْل فائض شجَّعه على مواصلة الحركة.. فهو اليوم لا يُقيم في أسمرة إلاّ ليُعِدَّ نفسه لرحلة جديدة في بلاد العرب. أو في إفريقيا، أو يعبر المحيط الهندي إلى أقاصي الشرق.. ليجوس خلال الآفاق المترامية!! في رحلة تطول أكثر من عام، ولا تقل بحال عن ثلاثة أشهر.

وأقسم أني ما رأيت في حياتي جلداً يُكابد الأهوال التي يُكابدها هذا الأبيض. فهو يشارك البدو طعامهم الجاف، ويصبر على مثل ما يصبرون عليه من مواصلة المشي في مفاوز مُعطِشة، ثم هو لا يُبالي بالقيظ مهما قسا لهيبه، ولا بالبرد مهما اشتد أواره.. وتراه عندما تضجُّ إحدى المفازات بأصوات الحيوان المفترس يخفُّ في نشاط إلى مسدسه، ثم يتعقَّب الأصوات حتى يسقط على مصادرها. ولا يعود إلى خيمته إلاّ بعد أن يصيح برفاقه من البدو المختبئين أن يساعدوه على نقل ما صاده من الحيوان.

قلت إنها شجاعة هيَّأها التقدير السخي الذي يبذله مواطنوه.

فقال ولهذا فقد أثرى ثراءً فاحشاً منقطع النظير. وهو اليوم يملك في بلاده مصانع للفضة تُدُّر عليه أرباحاً طائلة.. ولكنه يأبى أن يستخذي لهذا الغنى!! ولا تزال إلى اليوم تراه بعد أن اكتهل يواصل أسفاره في عزم الشباب إلى آفاق متفرِّقة من الشرق لا ندري حقيقة أغراضه منها!!!

قلت إنهم رجال فهموا من حقائق الحياة ما لم نعرف من أبجدياتها إلى اليوم.

والواقع أننا في حاجة إلى مَن يفتح عيوننا على هذه الأسرار، ويدفع شبابنا إلى العمل الدائم، ويُعلِّم أغنياءنا وأصحاب الأعمال الكبيرة فينا كيف يستغلّون نشاط الأقوياء منا، ويغرونهم بالتشجيع الذي يحملهم على مزاولة الصعاب، ويدفعهم إلى اقتحامها.

دعونا نُنظِّم في خطوتنا الأولى فرقاً للكشافة من فتياننا ترود جبالنا، ومسالك ودياننا، وتتعرض فيها للحر والقر، ومجالدة الصعاب لتألف الحياة الخشنة، وتنشأ على حب المخاطرة.

إن في هذا ما يعدهم في المستقبل للمغامرة في جميع ميادين الحياة، ويؤهلهم للعمل الدائب في مختلف شؤونها.. وإذا استطعنا أن نُغري بعضهم بالتنقل بين أمصار العالم المتمدِّن ليتصلوا هناك بألوان الحياة المختلفة ويختلطوا بالعاملين في شتّى حقولهم، واستطعنا أن نزوِّدهم بما يشجعهم على طول الاغتراب فإننا سنربح –غير الجامعيين من رجال العلم– شباباً له لونه

الخاص، وملِكاته الخاصة في حقول عملية جديدة.. فاحزموا أمركم أيّها الأغنياء..

ودعونا.. نمشِ!!

لو مُنِيَتْ أوروبا بالمتشائِمين

لا يؤلمني شيء ما يؤلمني أمر المتشائمين بيننا ((ماذا نعمل؟ ماذا نصنع؟ كيف يتسنى لنا أن ننجح! ونحن فيما نحن كما ترى!!؟)).

إن الأمر أيسر ممّا تظنون.. انسوا السلبية، وامضوا في سبيلكم.. إن هذا المضي وحده نجاح قبل أن يواتيكم النجاح!!

كيف يتسنّى لنا أن ننجح ونحن فيما نحن فيه؟ أي شيء هذا الذي يهولكم مما نحن فيه؟ أترووننا متأخرين أكثر ممّن كانوا متأخرين قبل أن يتقدموا؟

إن أوروبا كانت في أحد الأيام قبائل تحكمها الفوضى، ويسودها الإقطاع، وتسيطر الهمجية على أنحائها بصورة نسمو عنها اليوم، كما تسمو حياة السويسري المنظمة عن مثلها في حياة البدوي من سكان (القضيمة).. ومع هذا فإن أوروبا لم يمنعها ذلك من الرقي، ولم يمنعها من التقدم الذي بلغت شأوه اليوم.

فلو مُنِيَت أوروبا في عهد تأخرها بمتشائمين يفتون في عضدها، ويهمسون في آذان العاملين بها))ماذا نعمل؟ ماذا نصنع؟ كيف يتسنى لنا أن ننجح؟ ((لظلت في مكانها في مؤخرة الصفوف إلى اليوم، ولما مضت خطوة واحدة فيما مضت فيه من مسالك الحياة.

إنه لا مستحيل في الأرض، وإن جميع الأمم في جميع أدوار التاريخ مرَّت بها أطوار ارتفعت بها، ثم هبطت. ثم عادت فارتفعت، ثم تداول عليها الارتفاع والهبوط.. تلك سُنَّة الله ولن تجد لسُنَّة الله تبديلاً.

إن سكان أمريكا الأصليين من الهنود الحمر كانوا قبل غزو أمريكا مثلاً من أمثلة التأخر والهمجية.. ولكن الرائدين الأولين اكتشفوا في معابدهم وآثارهم ما يدل على أنهم كانوا أهل حضارة بلغت من المدنية مبلغاً عظيماً.. فكيف انساقت بلادهم إلى مثل الهمجية التي شوهدوا فيها قبل اكتشافها، وكيف تبدَّلت الهمجية في نصف قرن إلى حضارة منقطعة النظير، وحلَّ في الأمريكتين محل التأخر تمدن يحتل المركز الأول بين الأمم الراقية في عصرنا الحاضر؟.. لا شيء إلاّ أنها سُنَّة الله ولن تجد لسُنَّة الله تبديلاً.

ثم ما بالنا نبعد فيما نستشهد وهذه بلادنا كانت في أحد الأيام قبل ابتعاث النبي صلى الله عليه وسلم مثلاً من أمثلة الجهل، فما كاد النبي أن يُعلن دعوته حتى تبدَّل الجهل علماً وحلَّ محلَّ التأخر حضارة ذاع أمرها، وشاع صيتها، واستضاء العالم بنورها طوال عدة قرون.

ودالت الأيام كما تدول في تاريخ أمم الأرض قاطبة.. فإذا العلوم تتبخر عن جهل مطبق، وإذا مدنية محمد صلى الله عليه وسلم تغيب وراء ظلام شامل نعاني وطأته إلى اليوم.

فهل نستغرب أن تتفتح عيوننا على الحقائق بعد الذي عانينا؟ وأن نمضي مع سنن الكون فنستأنف مجداً زال ومدنية دالت؟

لا غرابة في الأمر. ما دمنا لم نخرج عن نطاق ما سُنَّ لمن قبلنا، وما سُنَّ لمن بعدنا، وما دمنا قد عقدنا العزم على أن نأخذ بالأسباب المشروعة في نظم التقدم المعروفة في تاريخ البشر.

إذن فأي معنى للتشاؤم الذي ينتاب بعضنا فيملؤهم يأساً، ويصور لهم الحياة كالحة لا ينفذ فيها ضوء؟.. إنه تشاؤم لا مبرِّر له لأن جميع الشواهد تدل في بيان واضح على ما خطوناه نحو الحياة الجديدة.

لسنا مغرورين في أنفسنا لندَّعي بهتاناً أننا بلغنا غايتنا من الهدف، وأننا انتهينا إلى مكاننا تحت الشمس، ومركزنا فيما يُحاذي النجوم. فذلك هراء لا يقوله عاقل.

ولسنا كذلك متشائمين لنُنكر محاولاتنا نحو الحياة الجديدة، وننسى أننا ربحنا إلى اليوم أولى خطواتنا.. فتلك مغالطات لا يُقرُّها منطق.

دعونا نكن واقعيين.. نفهم مركزنا في جلاء واضح، لا نمشي مع المتهوِّسين لنُبالغ في حقيقة ما بلغنا تحت الشمس، ولا مع السلبيين فنتعامى عن الجهود التي تبذلها البلاد لتدرك المواكب السائرة.

وإذا جاز أن يسوءنا شيء من شأنه أن يُعرقل سيرنا في أول مدارج نهضتنا.. فسوف لا تبلغ إساءته الحد الذي يبلغه منا المتشائمون واليائسون.

دعونا نثق في أنفسنا، ونُشعرها القدرة على العمل المجدي، ففي ذلك ما يُشحذ عزائمنا على مواصلة السير، ويهون علينا بلوغ الغاية.. أما أن ننظر إلى الحياة من خلال منظار أسود. فتلك محاولة تلوِّن أمامنا الطريق بلون

كالح لا تنشرح صدورنا لاجتيازه.. فيتعذَّر علينا المشي، ويعود رد الفعل على عزائمنا فيثبطها وعلى ما نملك من كفاءة فيشلُّها.

كلنا يعلم أن جماعة المتشائمين أفشل الناس في الحياة.. ذلك لأن ذهنياتهم الضيقة لا تتَّسع إلاّ لضياع الوقت في الشكوى والتوجُّع، وتصوير الحياة من جوانبها القائمة التي تُثير الألم، وتستدرُّ الدموع وتُحيل معاني الرجولة فيه إلى شيء جديد لا يحسن إلاّ ما تحسنه الندّابات المحترفات.

ويتحوّل التشاؤم في الشخص إلى يأس قاتل.. ذلك لأن التشاؤم الذي يبلغ الذروة، ويُحيل الطاقة الكادحة في الرجل إلى أنين باكٍ سوف يسلم إلى اليأس الذي يقضي على جميع المواهب، ويعطل سائر المَلَكات.

فما بال بعضنا يريدون أن يتظرَّفوا في نظر الناس بما يعلنون من تشاؤمهم كما كان الزنادقة في عصر أبي نواس يتظرَّفون بما يعلنون من كفرياتهم؟ إنها أساليب شائكة لا تساعد على مواصلة السير، وإن في ثناياها من الأسرار ما يُثبط العزائم، ويُقلِّل من نشاطها.

إن أخوف ما نخافه على شبابنا المتوثِّب أن تسوده هذه الروح. فتعطِّل مواهبه، وتقلِّل من قيمة كفاءته التي بتنا نبيط بها آمالنا، ونعقد عليها أمانينا.. فعسى أن تنال صرختنا في مجامع الشباب ما تستأهله عندهم من استجابة يصيخون فيها لما نرجوه عندهم من مطالب.

قلنا ولا نزال نقول إن عِدَّتنا إلى أهدافنا في الحياة لا تعدو سواعدهم المفتولة، وعزائمهم النشيطة، وتحصيلهم الثقافي، واستعدادهم الذهني.

إن دعاة النهوض من جيلنا القديم لا يجهلون مركز شبابهم في الحياة الجديدة. وهم على أتم استعداد لتسليمهم مقاليد النهوض على أن تمضي صفوفهم قدماً نحو فجر جديد تتمتع فيه بالأضواء المشرقة التي أنارت دروب الحياة لجميع من سبقنا من الأمم المتمدنة في الأرض.

فهل يقبل الشباب دعوتنا ويستجيبون لما نرجو عندهم من آمال؟. وهل يستطيعون أن يعدونا بمواصلة السير دون أن يثبطهم، أو يفل من عزمهم يائس؟؟ نرجو ذلك ونتمنّاه.

فاخطوا أمامنا..

ودعونا.. نمشِ!!

ويي يا ولد . . قرش الزواج مخلوف

لا تزال سِمات البدائية تلوح واضحة على كثير من مظاهر حياتنا الاجتماعية!!

إن الرجل البدائي يتكلّف لحياته أكثر مما يتكلَّفه الرجل الراقي.. فالألوان الزاهية والأردية الموشّاة بالمطرَّز والمقصَّب، والأثواب المحلاَّة الفضفاضة، والمجلس المكتظ بقطع الأثاث الفخمة. كل هذه مميزات الرجل البدائي الذي يتكلّف لمظهره ما لا يتكلّفه الرجل الراقي وهو يتعشَّق البساطة بكل ما فيها من رشاقة وظرف!!

فإذا ادَّعينا أن بيننا اليوم من يعيش عَيْش البدائي فإن دعوانا لا يعوزها التماس الأدلة من أقرب المظان.. لأن طابع التكلّف الذي يسود أكثر مقدراتنا في الحياة يكاد ينطق بما يزيد ذلك ويثبته.

نحن لا نستطيع إلى اليوم أن نُحيِّي ضيفاً أو نكرمه إلاّ إذا وضعنا السكين في عنق خروف أو أكثر، وتركنا مدخل دارنا الضيق يستعر بالحطب الملتهب تحت القدور المنصوبة، وتركنا بيتنا يكتظ بالمواعين والأواني ويزدحم بالمباشرين، وتضيق مائدتنا بالسمن والدسم.. في صورة لا تختلف عما كان يفعله أجدادنا يوم كانوا يعيشون في ظلال الخيام على حوافي البادية.

وهي خلال لا يعرفها الرجل الراقي، ولا يُقر أسلوبها بحال.. لا لأنه يجحد واجبات الضيف، أو يُنكر حقوقه على المضيف.. بل لأن الضيافة في أرقى درجاتها لا تعني هذه (العفاشة) بقدر ما تعني التعبير الرقيق في تقدير الضيف

وإيناسه، وإبداء شعور الولاء نحوه.. ولا يعجز الراقي أن يُعبِّر عن كل هذا بمائدة عائلية تجمع إلى بساطتها ألواناً لذيذة فيها من الظرف والجمال أكثر مما فيها من البذل (العفش)!! أو أن يدعوه إلى حفلة مختصرة في أول مطعم يُصادفه.

هذه البساطة في التعبير عن احترام الضيف تؤدي عندهم نفس المعاني التي نؤديها ونحن ننحر الخرفان ونُثير في بيوتنا الضجة والارتباك اللَّذين يُثيرهما مَقْدَم الضيف، واللَّذين نكلِّف من أجلهما موازنتنا ما يعرِّضها للاضطراب.

ولا يقل شأننا عن هذا في عموم ولائمنا واحتفالاتنا إن لم تزد عليه في مناسبات الأفراح أو مآتم الأتراح.. فلحفلات العرس عندنا مظهر صارخ من مظاهر البدائية. يتجلَّى فيه تكلّفنا في صور لا يرضاها مجتمع شذّب الرقي طباعه، وهذّب ذوقه، وأعدّه لتفهم الجمال في صوره الرشيقة الجذابة.

أي تكلُّف هذا الذي يُزين لسيداتنا ارتداء الفساتين من ذات الأثمان الفاحشة؟ أو حب الظهور أمام لداتهن بمظهر الغنى الكامل؟ أم فرحتهن بلمعته؟؟ إن كان الأول فما أشد غرورهن فيما يظنَّن، لأن الفتيات في سائر الأوساط الراقية يضحكن من سذاجة مُحِبات الظهور. وإن كان الثاني فلا أدلَّ منه على البدائية والتأخر.. لأن البدائيين وحدهم هم الذين يستنسبون الألوان اللامعة ويستذوقون زخرفها المبهرج.

يمعن سيداتنا في التكلُّف.. فتأبى الواحدة أن تكرر لبس ثوب ارتدته في حفل سابق.. وهو إغراق في التظاهر بمظهر القدير الموسَّر.. إغراق لا يتكلّفه إلاّ غبي لا تتَّسع آفاقه لفهم الأشياء على حقائقها.. والناس لا يجهلون مراكز معارفهم من الغنى، ولا يهزؤون بشيء هزأهم بالأغبياء الذين يحسبون أنهم قادرون على تضليل الناس عن حقائق مراكزهم!!

ويبدو الغباء أشد نكراً، وأفظع مقتاً في مواقف اللاتي يقصدن بيوت الإجارة ليكترين الأردية التي رصَّعها أصحابها بالزخرف من الزجاج أو ما يشبه الزجاج، وعرضوها للساذجات يستأجرنها في ليالي العرس ساعات محدودة يفرحن فيها بالبريق الكاذب، ويدفعن لقاءه ما يكفي لشراء فستان يملكنه ويستطعن أن يتجمَّلن به في أكثر من مناسبة.

إنهن يفضلن أن يفرحن بالبريق الخلاب الذي تُشعُّه قطع الزجاج في ثوب الكراء دون أن يبالين بالقيمة التي يستطعن صرفها في ثوب يمتلكنه.. وهي فرحة لا تختلف عن فرحة جداتهن يوم كنَّ في خيامهنّ يعشن بين التلاع أو في ثنايا منعرجات الوديان، ويُحلِّين براقعهن بقطع من النحاس اللامع، أو فصوص الزجاج البراق.

إنها بدائية يضحك منها كل مجتمع في الأوساط الراقية، ويهزأ بها كل مهذب تذوق الجمال، وفهم من أسراره ما لا يفهمه البدوي الفدم!!

ومضى إغراقنا في هذا التكلف إلى آماد بعيدة في حياتنا. نرجو أن نعرض لها فيما يأتينا من أحاديث، وسنستدل من شواهدها على مبلغ بدائيتنا في

عصر كهذا بلغ شأوه في الحضارة والتمدُّن إلى أسمى ما بلغته العصور في التاريخ.

فدعونا يا قوم نستشعر حقائقنا، ونفهم الأمور على أوضاعها الصحيحة، ونَسْمُ بأذواقنا إلى الحد الذي سمت إليه أفكار العصر.

حدثني صديق كان يكره أن تقوده العادات السيئة إلى شيء لا يقرُّه منطق العاقل، فقال: عندما امتحنت بزواجي بَيّتُ العزم على أن ألغي جميع التقاليد التي عشت أمقتها، وأنتقد أعمال الناس فيها.. وكنت أعلم أن والدتي، وأهل بيتي سوف يسيئهن ألاّ أأْتمر بما يَرَيْن من ترتيبات وتنظيمات.. ولكني عقدت العزم على إقناعهنَّ، وصرفهنَّ إلى المفيد النافع فلم تنجح محاولاتي.

أعلنت إلى أهلي أن موجودي من النقد محدود، وأني إذا دفعت المهر المفروض فسوف لا يبقى في جيبي إلاّ ما يكفي لنفقات وليمة محدودة.. فصعق من حولي من النساء، واعتبرن أعمالي فضيحة لا يُقدم عليها عاقل والتجأن إلى أمي ليضعن يديها على مبلغ جنوني.. فما سررت لشيء كما سررت بالتجائهم إلى أمي، لعلمي بمبلغ تجاربها في الحياة، وخشيتها على مستقبل ولدها الذي بات محتاجاً إلى كل قرش يصرفه في مثل هذه الترَّهات.

ولكن أمي أبت إلاّ أن تنسى حنانها، وأن تلغي تجاربها، وألاّ تصغي إلاّ إلى صوت العادة المقيت)) :وي يا ولدي.. إحنا صدقنا على الله نفرح بك في هذا اليوم.. يعني ليش تخلينا هرجة في لسان الناس!. لا، لا يا ولدي أنا

ما أقبل هادي اللآمة.. شوف عمك صالح قال لي اللي ينقص عليكم عليَّ غلاق الباب.. قوم استلف لك منه مائة جنيه.. وقرش الجواز مخلوف.((!!

بأي لسان أحاور أمي التي أملتُ فيها كمال العقل، وبأي لغة أخاطب أخواتي وخالاتي؟؟ إنهن يأبَيْنَ إلاّ أن أخضع لقواعدهن! والقرش مخلوف!! أو يثرنها حولي عواصف من التفجُّع، والندب، والبكاء الذي نغَّص أيامي وأحالني إلى طفل ضعيف الإرادة سهل القياد.. وبذلك تكلفت مضطراً جميع الواجبات التقليدية التي أملوها عليَّ.. وهأنذا إلى اليوم وبعد قضاء عدة سنوات من زواجي لا أزال أعاني من إرهاق الديون ما لا يعلم بوطأته الشديدة إلاّ الله.

والواقع أن مأساة صديقي هي مأساة بيوتنا جميعاً.. السيدة تأبى في بلادنا إلاّ أن تتميز في مآدب الأفراح عن طبقتها بما تتكلّفه من مظاهر الغنى الزائف، فتعمد إلى استئجار عقود اللؤلؤ أو حلي من الماس تعرف جميع صديقاتها أنها لا تتفق مع مستواها، وأنها لا تملك من ثمنها إلاّ ما دفعته إيجاراً إلى ساعات محدودة.

فيمَ كل هذا التكلُّف والزيف؟

إن الكاذب الحاذق لا يتكلَّف الفشر إلاّ في أوساط تجهل أمره، فما بال سيداتنا يتكلَّفن الغلو في زينتهن في أوساط تعرف أن ما نيط بأعناقهن وأيديهن لا يملكن من أثمانه شيئاً؟!

ليتني أجد من يدلُّني على معنى هذه الزينة وقيمتها وأنا أنظر إلى فاطمة وفي جيدها عقود لآل فلان الفلاني، وفي يديها أسوارة أعرف أنها من حلي بيت الزلباني!!

إنها البدائية في أثقل صورها، وإنها السذاجة في أسمج أشكالها.

إن المجتمعات الراقية لا تحفل بهذا التكلُّف المصطنع، ولا يُرهق أفرادها أنفسهم بهذا الزيف المقيت.. فحسب السيدة منهنَّ أن تعد للمآدب الممتازة ثوبها النظيف، وأن تحلّي جيدها إن استطاعت بقطعة من الماس أو اللؤلؤ تملكها ولا يزيد ثمنها عن مستوى السيدة في بيئتها.

إن السيدة المهذبة تعرف قدر نفسها.. فلا تحاول أن تغلو في تقدير مركزها في نظر أترابها، وتأبى أن تخدع نفسها، أو تضلِّل غيرها لتبدو على غير حقيقتها.. وهي على عكس السيدة البدائية التي تتكلف البهرجة التي لا تتناسب مع مركزها في الغنى والجاه.. فتثير ضحك العاقلات أكثر ممّا تحوز إعجابهن، وتحملهن على مقتها قبل أن تظفر باحترامهن.

سيقول البسطاء من الناس: ولكن ما معنى هذه الحفاوة التي تجدها المتبهرجات، والمتكلّفات للزينة في حفلاتنا؟ وأين المقت الذي نخشاه عليهن؟ إنه لا أثر له في جميع أوساطنا.

وهو اعتراض لا غبار عليه فقد تطورت المأساة حتى فقدنا الإحساس بما نُعانيه من آلامها.. وذلك دأب جميع المآسي التي يألفها الإنسان فينسى نواحي العيب فيها ثم لا يلبث أن يندمج فيما أَلِف، حتى يفقد الإحساس

بحقائقها الموغِلة.. وقد يتطور شأنه معها إلى أكثر من هذا حتى يصبح الألم مصدراً لألوان من اللَّذَّة يفسرها النفسانيّون بما يفسرون به معاني الشذوذ!!

فإذا كانت مأساتنا قد تطورت إلى حد نسينا فيه آلام عيوبنا، ففي ذلك من الشذوذ ما لا يقاس على قاعدة، وفيه من الخطر ما نخشاه على أحاسيسنا أن تفقد وظائفها في أحد الأيام.

حدثني فتى من شبابنا المتعلم فقال: إنني لا أُكلِّف نفسي نزاعاً في رفض طلبات قرينتي، فقد نظَّمت معها موازنة واضحة البنود تشمل وارداتنا ونفقاتنا، ثم سلمت إليها جميع الواردات، وكلَّفتها بتنفيذ البنود.. فإذا عنّ لها أن تكلِّفني بطلب يُرهق أحلتها على بنود الموازنة وخيّرتها لتضغط البند الذي تشتهيه، ليتوفر لها ما نشتري به.. وعندئذ أشعر أن الحيرة لا تلبث أن تنتابها، لأنه ليس في البنود ما يحتمل الضغط.. فأتركها لتُقنع وجدانها بما تراه، وتعود إليَّ مستسلمة خاضعة!!

إنني أُكبر في هذا الفتى عنايته بهذا اللون العالي من ألوان المعاملات.. ولكني أعتقد أن دخله المحدود أعانه على انتهاج مثل هذا المسلك.. ولا أدري إذا ما واتاه الدخل غير المحدود أيقوى على إقناعها أم يُسهِّل لها مطالبها ويتركها تُثير روح المنافسة في أترابها بما يخلعه عليها من بهرج برّاق؟

على أنه ينقصنا هذا النوع من السيدات.. النوع الذي يجيد تنفيذ الموازنات، ويقبل أن يخضع لبنودها، ويرتبك عندما يفاجئه طارئ لا محل له بين أبوابها.

أعتقد أنني لا أغالي إذا قلت إن معظم سيداتنا لا يرهقن أنفسهنَّ بالخضوع لما تنظمه أبواب الموازنات في بيوتهن إذا قبل الرجال توليتهن أمرها.. وإننا قد لا نجد السيدة التي تضطرب إذا ارتبكت موازنتها.. إنهن أجرأ مما نتصور لأن في استطاعة الواحدة منهن أن تمر بجرة قلم على جميع البنود إذا رأت في أحد أبوابها ما يحول دون مطالبها، وأن تضرب بيد من حديد جميع القواعد التي قامت الموازنة على أسسها لتتمتع بما تشتهيه (وضربة دم على الموازنة واللي جابوها.. أنفق يا سيدي اللي في الجيب يجيك في ما الغيب)!!

دعونا أيتها السيدات نفهم واجباتنا في المنزل في ضوء الحقائق الناطقة، ونُنظِّم أمورنا في نسق متَّزِن يصون بيوتنا من النَّزَق، ويضمن لنا فيها حياة لا يشوبها اضطراب أو عبث.

وأخيراً دعونا أيتها السيدات..

دعونا.. نمشِ!!

هو أنت.. تبغى كل يوم تتزوج

وتتداعى المعاني بين يدي بحثاً عن هذا الذي نرهق به جيوبنا لتستطيع سيداتنا أن ترضى بما تُكلِّفنا بعض التقاليد الشائعة بما في شيوعها من ترَّهات وزيف.

وتتداعى المعاني فيحلو لي أن أتابع البحث في مثل هذه الألوان لنرى إلى أي حد تأسرنا هذه الترَّهات وتملك علينا أزمة أمورنا.

لا ينكر أحد أن أغلبية شبابنا الساحقة لا تجرؤ على البحث فيما يكمل عليها دينها، ويضمن لها الشطر المتمِّم لسعادتها.. ذلك لأن السبيل إلى هذه الغاية محفوف بتقاليد لا نهاية لتكاليفها المرهقة.. ونفقاتها الطائلة.

لا يكفي أن يعرف الشاب طريقه إلى بيت مخطوبته ليقدم إليها ما نصحت به السُّنَّة، ورضي به وضعه المالي في حدود لا ترهقه نصباً، ولا تكلفه من أمره عسراً.

إن مثل هذا السبيل لم يخلق بعد ليسلك الشباب فيه طريقاً ناعماً يفضي بهم إلى استقرار سعيد، وعيشة هانئة. فإذا أحجم الشباب عن سلوكه.. فالذنب في هذا ذنب الترَّهات التي تركتها تقاليدها تنبت على حفافي الطريق كما تنبت الطفيليات في أحواض الزهور.. فتأخذ عليها نصيبها من النموِّ والازدهار وتُحيل أحواضها الجميلة إلى منابت للشوك والعوسج.

إن الشاب بيننا لا يبلغ سن الزواج حتى تقحمه تقاليدنا في مآزق لا يدري كيف يضع قدمه فيها.. إنه مطالب لدمه الفوّار وطبيعته الحارة بمطالِب

جنسية لا هوادة فيها ولا محيص عنها، ولكن التقاليد تأبى أن تعترف بما يُعاني لتتنازل عن ترَّهاتها الزائفة.. وتُيسِّر له السبيل إلى ما يصبو إليه.

إن من التكاليف المفروضة أو الفروض المتكلِّفة ما لا يقوى على احتمالها كاهل.. فوا رحمة للشباب الممتحن في عفافه وشبابه.. أمام إصرارها العنيد وفروضها القاسية!!

وتتمثَّل التكاليف بترَّهاتها التقليدية أكثر ممّا تتمثَّل عندنا في البيئات البدائية التي لم يرتفع بها مستواها إلى فهم الحياة على حقائقها، وتجد من نسائنا المتأخرات تشجيعاً منقطع النظير))وي يا خويا.. هو أنت كل يوم تبغى تتزوج.. لا.. بلاش فضايح.. إما تسّوي شيء على أصوله. وإلاّ بلاش تبهدلنا.((

ترى ما هذه الأصول التي يردننا لنسوِّي أمورنا في الزواج بموجبها؟

إنها سلسلة من التكاليف المرهقة لا يُقرُّها منطق ولا يرضاها عقل.. إلاّ إذا أردنا أن نسمّي تصرفات بعض سيداتنا الجاهلات عقلاً.

إنني لا أتهجم على سيدات فيهن أمي وأختي، ومنهن قريباتي بنسب أو صهارة أو جيرة.. وليس بينهن إلاّ من تعز علي.. لا أتهجم عليهن ولكنني أجد المغبونين بأحكامهن الظالمة، وأوامرهن الجائرة، مسألة لا تقبل التسويف أو التراجع!!

ما معنى هذه الجلبة التي يضج بها بيت العريس، ويضج لها بيت العروس قبل موعد الزفاف بأسبوع؟.. إن سيداتنا فرحات بابنهنَّ العريس أو ابنتهنَّ

العروس.. فليفتح البيت أبوابه (للزيطة) الفارغة، ولتستعد الجيوب بما كُتب عليها من إرهاق!!

ثم ما معنى هذه الجموع التي يغصُّ بها دار العريس وملحقات داره من بيوت الجيران قبل موعد الزفاف بأيام.. يرتعون فيها بين ما لذّ وطاب، أهي الفرحة بمعناها اللذيذ؟. أم هو التقليد الموروث بنفقاته الباهظة وتكاليفه المدمِّرة؟

وأخيراً ما معنى هذه البنود المفتوحة لأرقام لا حدود لنهايتها ليلة العرس، وقبل ليلته، وبعدها؟

أأموال هي رخيصة لا وزن لها ولا قيمة عند أصحاب العرس؟

أبذل هو نستنزفه من أفئدتهم، ونقتطعه من قلوبهم ثم لا نتركهم حتى نوسدهم الأرض من هول ما أصاب جيوبهم؟؟

ليتنا ندري إلى أي حد نجني على ضحايانا من الشباب المقبل على الزواج ونعرف مدى ما نصيبهم به في أموالهم وأنفسهم ليرضوا تقاليدنا الرثَّة وعاداتنا البالية؟!

سيقول المتحذلقون منا إن مثل هذه التكاليف لا تصيب إلاّ القادرين عليها؛ لأن العاقل منهم سوف لا يُقحم نفسه فيما ينوء تحت أعبائه، ولا يتكلّف في أفراحه إلاّ إلى القدر الذي يقوى على احتماله.. وفي هذا من المغالطة ما يستحق الدراسة والبحث.

إن جميعنا يعلم أن الفقير الذي يشعر بنقصه عن جيرته وأقرانه يأبى إلاّ أن يغطي نقصه بما يتكلَّف في مثل هذه المناسبات!! ليُثبت لغيره كماله المزعوم.

تلك مأساتنا التي نتمنى علاجها في الأوساط الفقيرة.. قبل أن نعنى بالميسورين والأغنياء في بلادنا.

إننا لا نجرؤ على انتقاد فقرائنا عندما يزجُّون بأنفسهم في مثل هذه المشاكل التي يُقاسون من فداحتها ما يُقاسون.. لأننا نعلم أنهم يستجيبون في أعمق أعماقهم لمشاعر لا يقدرون على السيطرة عليها.. إنهم يندفعون من حيث لا يشعرون إلى تقليد الأغنياء ليرضوا كرامتهم المجروحة، ويُثبتوا لأنفسهم أنهم لا يقلّون كفاءة أو بذلاً عن أندادهم رغم فقرهم المدقع وحاجتهم إلى (القرش الواحد).

ولكننا نستطيع أن نجرؤ على أصحابنا الأغنياء، راجين إليهم أن يكفّوا عن جميع المظاهر الزائفة التي يتظاهرون بها في أفراحهم ليدللوا على مكان غناهم في بلادنا.. نستطيع أن نقول لهؤلاء إنكم أكبر من أن تتكلَّفوا هذا النصب، لتُثبتوا رتبة الغنى في بيوتكم.. فنحن نعلم عن درجات الغنى بينكم ما لا نحتاج معه إلى تدليل أو إشهاد.

ما أحلى أن تطمئن نفوس أغنيائنا إلى هذا، وأن يتَّفقوا فيما بينهم على التواضع وإخفاء تظاهرهم رحمة بالفقراء الذين يندفعون خلفهم تحت تأثير عوامل لا يستطيعون عصيانها.. ليُثبتوا لأنفسهم غنىً موهوماً، وثراءً زائفاً.

اضربوا الأمثال لفقرائنا بتصرفاتكم العاقلة.. ليقول الفقير غداً لمن يلحاه: إن لي أسوة بهؤلاء الوجهاء الذين أضربوا عن التقاليد المُرهقة، واكتفوا في أعراسهم ومآدبهم بالبسيط الذي لا يُكلف، والجميل الذي لا يُرهق.

اضربوا الأمثال أمامنا..

ودعونا.. نمشِ!!

تفضحنا بين الناس. . وتخلينا سيرة

وإذا مضى بنا السياق في بحث هذه التقاليد المرهقة التي تحول دون إقدام شبابنا على الزواج فستُصادفنا ألوان لا تقل مآسيها عن المشكلات التي ألمَمْنا بها.

إن الشباب الذي زجَّ بنفسه بين هذه المآزق من تقاليدنا المرهقة لا ينتهي نصبه بانتهاء أيام الفرح.. فثمة مراسيم تتسلسل بتسلسل المناسبات التي نجدِّدها.

هناك ما نُسميه (السابع)، وهو يوم مشهود لا يقل في عنته، وتكاليفه عن عنت وتكاليف غيره من أعياد المناسبة، وهناك (البدّاية) التي يستعد فيها أهل العروس وأقرباؤهم بما يُرهق جيوبهم ويستنزف أموالهم ويستعد العريس بما يجمّل عروسته في نظر أهلها حتى لو اضطر إلى الاستدانة وسؤال الناس.

وتتوالى الأيام فتتوالى النكبات كلّما تجدَّدت مناسبة اقتضتها الولادة، أو اقتضاها المرض، أو اقتضاها الموت.. لنا في كل حدث تقليد، ولكل تقليد مراسم، ولكل مرسوم فروض لا آخر لعللها، ولا نهاية لتكاليفها.

إنني أعتقد أن عصور التأخُّر بما غمرها من فراغ وجدة علمتنا التشاغل بأمثال هذه الترَّهات التي كنا نبدّد فيها أوقاتنا ونهيِّئ لأنفسنا من مناسباتها أعياداً نبدِّد ما انتابنا من سأم الحياة المتواترة على نسق واحد ليس فيها ما يجدِّد النشاط ويلوِّن الحياة.

أمّا اليوم وقد شرعت تنجاب غياهب الجهل، وبدأ مستوى الحياة الرفيع يبدِّد الحِدة، وأخذنا نشعر بحاجتنا إلى كل دقيقة من أوقاتنا التي كنا نبدِّدها في الفراغ.. فمن العيب أن نترك حياتنا الجديدة تتلاعب بها عواصف التقاليد الموروثة، ونبيح للترَّهات أن تعصف بماديتنا في وقت ارتفع فيه مستوى العيش، وأصبحنا نحتاج إلى كل قرش نربحه لمستلزماتنا الضرورية.

وإذا كان لأجدادنا عذر فيما مضى بما ران على بلادهم من جهل، وعذر بما اتَّسع أمام أوقاتهم من فراغ، وعذر بما كانت تُدرُّه أرباح الحجاج عليهم، وهم أقلية محدودة يغمرهم وابل الحجاج بفيض يسعهم.. إذا كانت هذه أعذارهم.. ما هي أعذارنا بعد أن انتشر التعليم في آفاق بلادنا، وبدأت الأذهان تتفتق لتفهم الحياة على حقائقها؟. ثم ما هي أعذارنا بعد أن ضاقت أوقاتنا بحركات العمل الصاخب التي باتت تضج به البلاد، وبعد أن ارتفع مستوى معيشتنا حتى أضحت الأرباح على توافرها وكثرة مواردها تعجز في كثير من الأحيان عن إيفاء حياتنا الجديدة ولوازمها الطبيعية؟

لا يجب أن تحكمنا عادات كانت تحكم عجائزنا من غير المتعلمات، ولا أن تأسرنا تقاليد ابتكرتها أول ما ابتكرتها الخرافة التي كانت تعيش في ظلال وارفة من الغباء والجهل.. وإلاّ فما هي ميزة نهضتنا الجديدة؟ وما هي قيمة التعليم الذي سطع ضياؤه في آفاقنا من الحدود إلى الحدود؟؟

قالوا إن الخرافة تنبت في حياض الجهل ونحن نعلم أن أكثر تقاليدنا في مآدبنا وأفراحنا وأتراحنا كان مصدرها ألواناً من الخرافات نبتت في حياض

الجهل، فإذا ظللنا إلى اليوم نستوحي ما اختارته الخرافة في عهود الجهل، وما ورَّثتنا إياه من عادات وما فرضته علينا من تقاليد.. فإن خسارتنا في مجال العرفان لا تُقدَّر بثمن، ولا تُقوَّم بأرقام.

إننا قد نعذر الجاهل إذا أسلس قياده لما ورث من تقاليد العجائز واحترم عاداتهم احترامه لشيء مقدس.. نعذره لأن الأمور عندما اختلطت عليه وضاع الحق بين صور الباطل لم يجد في نفسه الكفاءة اللاَّزمة للتمييز بين صورة وأخرى، فأسلم قياده إلى غيه ومضى مع السائرين.

ولكن ما عذر المثقف المطَّلِع الذي يملك من طاقة التمييز ما يؤهِّله لفرز الحقائق ونقدها؟

ما عذر المثقف إذا شوهد وهو يحتفي بعادات بلغت ذروتها من السخف، فيبيح في بيته إنفاق الأموال في مراسيم يأباها العقل، وتقاليد لا يقرها الدِّين؟! وبذلك يترك عنانه لسيدات جاهلات يعبثن به، ويصحن في وجهه صارخات)) :وي.. بلاشي هتايك.. شوف بيت فلان!! إيش سووا. سوّي زيّهم.. مو تفضحنا بين الناس.. وتخلينا سيرة.((!!

إذا استطاع المثقف أن يمتاز بقوة المعارضة، وثبات الجنان.. واستطاع أن يستعصي على التقليد الشائع، وألاّ يبالي بالفضائح المزعومة في رأي الجاهلات؛ فقد أتيحت لبلادنا الخطوة الأولى نحو الحياة الصحيحة التي يحياها العالم الراقي.

حضرتُ في إحدى المرات مأتماً من المآتم التي نُقيمها إحياءً لذكرى الميت، فاستغربتُ البذل السخي الذي رأيته بين موائد الطعام رغم ما أعلمه من فقر الأيتام الذين تركهم الميت، فملت إلى أذن صديق لي كان يجاورني في المجلس أستوضحه معاني ما أرى؟ فتنهَّد عن حسرة مكتومة. وقال: إن والدة الأطفال كلَّفتهم الاستدانة ليُشيِّعوا والدهم بما يليق في نظرها، ثم كلَّفتهم فاستدانوا مرة أخرى ما يكفي لهذه المآدب التي تراها.. في وقت لا يعلم إلاّ الله مبلغ حاجة الأولاد إلى كل قرش من هذه المبالغ الباهظة يقيمون به أودهم، ويشبعون بطونهم.

أي مأساة هذه التي تتحكَّم في مقدرتنا، وتوجِّهنا إلى أسوأ ما يتجه إليه الصمُّ البُكمُ العُميُّ الذين لا يفقهون؟ لا مراء في أن الجهل المطبق مهما بلغ إساره لا يفضي إلى مثل ما أفضت إليه تقاليدنا الجائرة، وعاداتنا المجنونة، ولا يمنع المثقفين أن يغضبوا لهذا الجور الطاغي، وأن يصدقوا عزائمهم على حربه.. كل في بيته بين أهله وذويه.

إننا إذا تضافرنا على هذا فلا شك أن النجاح سيُظاهرنا مهما بلغت الشُقَّة، وامتدت المسافة..

فتعالوا يا بني قومي إلى هذه الكلمة.

ودعونا.. نمشِ!!

نهيئ نظمنا لتقدير القيم

دعونا نمشِ.. في قوة الرجال من أصحاب الشخصيات الجبارة، الذين يحفلون بمراكزهم في الحياة، ويعرفون قيمتهم فيها، ويفهمون وظائفهم في ميادينها.

ما ضاعت بلادنا يوم كانت ضائعة في الأجيال المظلمة إلاّ لأن المهيمنين على مقدرتها أبوا إلاّ أن يعدّوا الأهلين إعداداً خاصاً يفقدون فيه حيويَّتهم، وحيثيَّتهم، ويفقدون شخصياتهم كمواطنين أقوياء يحفلون بالحياة، ويفهمون واجباتهم فيها.

رحم الله الأمويِّن فقد نظموا لهذا البلد سياسة يفقد فيها المواطن شعوره بحيويته، ويفقد فيها اعتداده بنفسه.. وجاء العباسيون بعدهم فمضوا على سننهم يُبِرّون هذا البلد بخيراتهم، ويبذلون فيه صدقاتهم، ولا يبيحون له التنفسِ إلاّ في جو محدود.. لينشأ أهلوه على ما أراد العباسييون لا ما أرادت الحياة!! وظلت هذه السياسة تقليداً نافذاً فيما تلا ذلك من عهود الفاطميين، والأيوبيين، والمماليك.. أما العثمانيون فإنهم لم يتسلَّموا الزمام في هذا البلد حتى كان قد نضج فيه التواكل، ونُسيت فيه الحيثيّات، وأُعطيت الشخصية معاني جديدة تتمثل في ألوان من الخنوع، والضعف، والرضا بأرزاق السلطان، وأُعطياته من حبوب الصدقة، وأموالها.

ولا تستقيم حيثيَّة في الحياة لشعب يرتزق من الصدقات، ويُرابط في انتظارها.. كما يُرابط قرّاء القبور، وفقراء التكايا في انتظار هبات المحسنين!!

إن أوقاتهم عندئذ أرخص من أن تُعادل بقيمة، وإن ما يشغلهم أثناءها من أحلام الكسل جدير بأن يصرف أذهانهم عن أي تفكير جدي.. له قيمته في بناء الحيثية، ويلهيهم عن أي حركة لها أثرها الفعّال في إنماء الشخصية وتبريزها.

لا غرابة إذن فيما بددناه من عمر الحياة يوم عشنا على هامشها أجيالاً طويلة دون أن نترك أثراً يشعر به جيراننا.

تلك أمة قد خلت لها ما كسبت.. أمّا اليوم وقد خلصنا من ربقة كل دخيل، وبتنا أصحاب كيان له مركزه بين الناطقين بالضاد.. واستقلَّت أمورنا عن كل أعجمي كان يخشى أن تنطلق عروبتنا من عقالها.. فما يمنعنا أن ندب على أرجلنا في قوة الواثق بنفسه، المؤمن بحقوقه تحت الشمس.

دعونا نبدد أحلام الكسالى التي همنا في أجوائها قروناً وقروناً، ونفتح عيوننا على الحقائق المحجوبة وراء الغيوم البعيدة.. دعونا ندرك أن لنا شعثاً يجب أن نلمه، وأن لنا مجداً يجب أن نسترده، وأن كياننا الضائع وحيثيَّتنا المتبخرة لا يُمنحان لنا منحاً، أو يُهديان إلينا إهداءً، ما لم ندب في طلابها بقوة جبارة، ونقتحم في سبيلها أفدح الأخطار وأهولها.. لنثبت كيان الجزيرة في حدودها من شمال حلب إلى نهايتها في شواطئ بحر العرب!!

دعونا نُربِّ أولادنا على بناء الشخصية التي لا تعرف الخنوع، ولا تغضي إغضاء المهين، ولا ترضى لنصيبها من الحياة مقراً وسطاً أو ما دون الوسط، ولا يقنعنا إلاّ ما يقنع الأُسود في الأدغال.

إذا تعوّد أطفالنا القوة فيما يمارسون من أفكارهم، وسائر حركاتهم نمت شخصياتهم في أسلوب أنف لا يرضيه إلاّ أن تسمع بأعماله فوق كل مستوى، وأن يبرز بآثاره على كل مبرز.

هُزمت ألمانيا في حربين متواليتين كانت نتائجهما كافية لتثبيط عزيمة شبابها، والقضاء على الروح المعنوية في صفوف العاملين فيها.. ولكن عنايتها بتربية الشعب تربية استقلالية هيأتها للصمود أمام أحداث الحياة، وأعدَّتها إعداداً قوياً ترقب فيه منافذ الانطلاق لتستأنف طريقها إلى المجد.

ما تمنى أعداء ألمانيا شيئاً بعد هزيمتها كما تمنوا أن تُشل حركتها الصناعية والإنشائية، وأن يُقتل فيها روح الابتكار والتجديد، ولكنَّ أمنياتهم لم تظفر بنائل أمام العزائم الصادقة.. أمام التربية المثالية التي يتجلّى فيها بناء الفرد في أمتن ما يتجلّى بناء القواعد من الصلب.

دعونا نُجرِّب هذا اللون من التربية فلا نُفسد أولادنا بالتدليل الزائف، ونحاول جهدنا أن نبثَّ فيهم معاني الإقدام، ونُحبب إليهم المخاطرة، ونُمرِّنهم على الاعتداد بأنفسهم، والثقة بها.

دعونا نُلقِّنهم معاني الكرامة، والعزة، والسموِّ بالنفس، ونضع لهم القصص التي تُجدِّف على جميع المتواكلين، وتلعن المستضعفين الذين يعيشون على فتات غيرهم؛ ولا تسمو أنفسهم إلى احترام حيثيَّتها والاعتزاز بشخصيتها.

دعونا نأبَ على مشهد منهم كل معاني الهوان، ونهيِّئ نظمنا على تقدير القيم الإنسانية، وَنَسْمُ بشخصياتنا فوق كل اعتبار، وَنُحْيِ في أصحاب

العزائم والابتكار والإقدام ميزتهم في هذه الميادين؛ لنثبت من سبيل غير مباشر في أنفسهم تقديس هذه المعاني العالية؛ ونغرس في أعماقهم الازدراء والمقت لما يخالفها.

إننا إذا فعلنا هذا هيأنا جيلاً ممتازاً عزيز الجانب، متيناً بما تركز في كيانه من قوة وثبات.

ما أحلى أن تخالفني في شرف!!

ما أحلى أن نمشي في نظافة تؤهِّلنا للعيش الصحيح في الحياة.

والنظافة التي نتمنّاها هنا ليست في الماء والصابون، وليست في الوجه والجسد، وليست فيما يؤكل أو يُشرب.. وإنما هي نظافة من غير هذه الأنواع.. نظافة مركَّزة في مواطنها من الضمائر والنفوس.

ما أحلى النظيف الذي يعرف ما عليه لنفسه، وما عليه لبلاده، وما عليه لأولاده، وجاره وصديقه، وما عليه لشريكه وعميله وقرينه، وما عليه لرئيسه ومرؤوسه وزميله!!

ما أحلى النظيف الذي يتحرّى الكلمة فلا يلفظها إلاّ صادقة، ويتحرّى الحركة فلا يأتيها إلاّ صحيحة.. يتحرّى ما وعد فلا يُماطل في الوفاء ويتحرّى ما ادّعى فلا يتكلّف الخداع والمين!!

ما أحلى النظيف دائناً، ومديناً، والنظيف غنياً وفقيراً، والنظيف سائلاً ومسؤولاً، والنظيف قوياً وضعيفاً، والنظيف رئيساً ومرؤوساً.

ما أحلى النظيف تاجراً وصانعاً، ما أحلاه مصدِّراً وموِرّداً، ما أحلاه بائعاً وشارياً، ما أحلاه قاضياً ومشرِّعاً، ما أحلاه على أي حال، وفي كل حال!!

ما أحلاك نظيفاً في (دست) مركزك بين الأوامر والنواهي، وما أحلاك نظيفاً بين كتبك في النظام والقانون، وما أحلاك نظيفاً أمام دفاترك بين الواردات والنفقات، وما أحلاك نظيفاً في تعهُّداتك بين الواجب والمفروض، ما أحلاك نظيفاً على أي حال وفي كل حال!

ما أحلاك نظيفاً وأنت لا تُبيّت قهري في باطل، ولا تتكلّف دحضي في ظلم، ولا تتعمد إساءتي في طغيان!!

ما أحلاك نظيفاً وأنت تعرف أخطاءك فلا تُوارب فيها، وتعرف مواطن ضعفي فلا تستفيد منها، وتعرف وجوه الحق فيما أدَّعي فلا تأخذك العزة.. ما أحلاك نظيفاً على أي حال، وفي كل حال.

ما أحلى نظافتك وأنت لا تستغل وجاهتك لكيد الضعيف، ولا يخدعك مركزك فتُشايع لقوي، ولا تُغريك ثقة أصحابك فيك فتنسى كل شيء إلاّ منافعك، وتهمل جميع المصالح إلاّ ما له علاقة بثرائك!

كن نظيفاً، وثق أن الأيام دُول، وأن ما تستفيده اليوم بوجاهتك أو منصبك، ستخسر أضعافه إذا فاجأتك الأحداث أو عاكسك التيار.

كن نظيفاً، وضعْ في حسابك أن وفاء الصدف للمحظوظين ما عاشوا لا يخدع التاريخ المنصف، ولا يُزيف حقائقه مهما بولغ في الطلاء، وأُجيد الغش.. فكن بريئاً للبراءة، وكن نظيفاً في كل حال وعلى أي حال.

إننا نخطو اليوم وئيداً في ضوء فجر جديد.. أمّا آمالنا فقد سبقتنا إلى آفاق لا تدانيها مواقع النجوم بُعداً، فدعونا نؤهِّل نفوسنا لما أملنا، ونُعدُّها إعداداً نظيفاً صالحاً لما بتنا نحلم به من مجد في الحياة.

إننا لا نجهل أن بلادنا اليوم تقع في مركز القطب من دائرة الحياة.. ذلك لأننا بتنا محسودين من كثير من أمم الأرض على ما نلنا من غنى، وما صادفنا من حظ.. وباتت أعينهم تُسلِّط أضواءها على كل حركة نخطوها لتستشف

ما وراءها، وتعرف أي سبيل نحن سالكوه في جدد الأرض، وأي مدلج نحن دالجوه في آفاقها.

لم نكن ملومين في أحد الأيام في جميع ما فرَّطنا في الحياة.. ذلك لأن شهرة بلادنا بالفقر في عهودها الماضية كانت وحدها كافية لما ننتحل من أعذار لأنفسنا.. كنا نقول، أو يقول غيرنا إن الفقر مطيَّة جميع الشبه سياسياً، واجتماعياً، وأدبياً. فماذا نقول اليوم عن أنفسنا وقد تفجرَّت الأرض عن ينابيع الغنى، وجادت بالملايين التي أوشكت أن ترفعنا إلى مصاف الأمم من الدرجة الأولى؟؟

ماذا نقول اليوم إذا اتهمنا متبجِّح في نزاهتنا أو أخلاقنا؟؟

أنقول إن الغنى أبطر بلادنا؟ وإن الثراء الذي يخدم أهداف الأمم، ويفتح عيونها على حقائق الحياة، عاد إلينا برد الفعل، وهيَّأنا لأسوأ ما تخشاه الأمم من أخطار؟؟

سيقول قائلنا إن هذا تسرُّع في الحكم، وإن النظر الرتيب الثاقب لا يُؤيِّد مثل هذا المذهب.

وهو رأي له وجاهته.. فالأمم لا تُقاس أخلاقها بما يُصادفها من مفاجآت، لهذا فإنني لا أستطيع أن أستبعد أن ما نُعانيه اليوم من فَوْرة لا يعدو أن يكون أثراً من آثار الغنى المفاجئ، وأن الأيام القريبة المقبلة ستكفل لنا حياة الاستقرار، وتساعدنا على الخطوات الوئيدة الرزينة، وتفتح عيوننا على أفضل ما في الحياة من سبل، وأنظف ما فيها من أخلاق، وأحلى ما فيها

من جمال.. وعندئذٍ سنكون أهلاً للمركز العالي الذي يجب أن نحتله بين أمم الأرض.

يوم كنا نجامل الغبي

كنتُ في حديث مع أحد المتخرِّجين من حملة الشهادات العالية.. فساقنا البحث إلى ذكر منصبه الذي يتمتع براتبه الضخم، فسمعته يُثني على هِمَّة كبير من رجالنا المعروفين بالشهامة، ويُقدِّر فيه ما بذل من جهد لمعونته في الظفر بهذه المرتبة.

ولعلّه كان ينتظر أن يرى أثر حديثه على صفحة وجهي.. فرأى جموداً لا ينطق بمعنى، وصمتاً لا يُعبِّر بحرف. فهاله الموقف السلبي، وأبى إلاّ أن يسمع تعليقي في الموضوع.

قلتُ ليس لي ما أعلّق به على صاحب الفضل في مساعدتك.. خصوصاً وأنا أعلم أن شهامته تتَّسع لأي شخص قصده غيرك، فهو عظيم من غير شك في أخلاقه، كما هو عظيم في وجاهته.. وهو الرجل الذي لا يبخل بمركزه على محتاج، ولا يضنُّ بجهده على قاصد، ولكنني أنعى بهذه المناسبة حياة المحرومين الذين لا تجمعهم بأمثال هذا العظيم جامعة، ولا يعرفون من حقيقته ما يُجرئهم على أن يقصدوه!!

أنعى حياتهم لأن المؤهّلات التي حسبوها ترشِّح للمناصب العالية، كان ينقصها في بعض الأحيان وساطة أمثال هذا الشهم، والاستعانة بوجاهته!!

ما أحوجنا في هذه الفترة الناهضة من حياتنا إلى أن ننقّي تقاليدنا من هذا اللون، وأن نعترف للكفاءات بحقوقها المكتسبة، وأن نسمو بأخلاقنا فوق جميع الاعتبارات.. التي لا تشرِّف شعباً يتحفز للحياة الصحيحة.

يجب ألاّ نحرم الشاب نصيبه من الجهود التي يُبذلها ليستكمل عِدَّته في الحياة، ولا نتركه يكفر بنتائج الكفاح، أو يعتقد أن نجاحه مرهون بيد تمهّد له طريقه في الحياة وتهيّئ له وسائل الظفر فيها.

إن شيوع مثل هذا اللون في الأمة دليل ناطق على عدم استكمالها شروط الرقي، وهو إلى جانب ذلك يُشير إلى معاني الضعف في مقوّماتها الحيوية.

دعونا نتسلَّح بالأخلاق المتينة التي تقوى على مواجهة الحقائق في ثبات وصراحة.. لا تشوبهما مواربة ولا تُفسدهما مجاملة.. فحسبنا ما عانينا من الآداب الزائفة طوال قرون قضيناها في مؤخرة الصفوف. لا يؤبه لأمرنا ولا تُقوَّم بين الشعوب بوزن.

قالوا إن هتلر عندما صنَّف الأمم في مؤلَّفه (كفاحي)، جعل كثيراً من شعوب الشرق الأوسط لا تستأهل أكثر من المرتبة الثالثة عشرة بين مراتب الأمم.. وكانوا حسبوه قد تجنّى فيما صنَّف.. ولو كنا نملك من متانة الأخلاق ما يُثبتنا أمام الحقائق ويُشجعنا على مواجهتها بصراحة لما ساءتنا جرأته، ولاستطعنا أن نضع يدنا في يده مؤمِّنين على ما يقول مؤيّدين ما يدَّعي!!

أكنا –نحن مجموعة شعوب الشرق الأوسط أو أكثريتنا إذا شئنا التحديد– نستأهل أن نرقى إلى أكثر من المرتبة التي ادَّعاها هتلر؟

دعونا نُحاسب أنفسنا ونجرؤ على الكلمة الصادقة فيما له علاقة بحقيقتنا لنعرف إلى أي مدى كنا متقهقرين في ميادين الحياة، وإلى أي حد كانت تهبط معلوماتنا بمقوِّمات الرقي من نواحيها الأخلاقية والاجتماعية والعلمية.

إننا لا نريد أن نتشاءم بعد أن خطونا خطوتنا الأولى. بل ولا نريد أن ننكر أننا اليوم في موقف المتوثِّب الذي يتحفَّز للحركة في أقوى معانيها. ولكننا نريد أن نقول إن فيما ورثناه من تقاليد أخلاقية، وقيم اجتماعية رواسب خليقة بالعناية والبحث، جديرة بالعلاج الحاسم الذي يستأصل الجراثيم من مَواطنها فيه، ويُطهِّرها بأقوى أنواع المطهِّرات النفَّاذة.

ليس بعيداً ذلك العصر الذي كنا نتبادل فيه الأدب الكاذب في جميع مناسباتنا.. ليس بعيداً ذلك العهد الذي كنا نُصانع فيه السخيف ونُسمّي آراءه سديدة، ونُجامل الغبي فنصفه بالذكاء، والجاهل فنصفه بألقاب العلم، والظالم فنضفي عليه مزايا لا تُقوَّم بفضل، ولا تُقاس بشمائل.

كنا نجري في ذلك على سنن من أراد أن يُربِّينا هذه التربية ليستفيد من ضعف أخلاقنا لسياسته، ويربح من هواننا لكبريائه.

أمّا اليوم وقد انبثق فجر الحياة في ربوعِ الشرق.. فأي معنى لبقاء أمثال هذه الرواسب في دمائنا؟

دعونا نعرّضها لوهجِ الشمس الضاحية لنُبيدها، ونقضِ على جراثيمها، ونتمتَّع بعدها بدم طاهر نقي لا تلوِّثه الشوائب.

دعونا نستشعر القوة، ونعتمدها كأساس في حياتنا العامة.. لا نتخاذل أمام الحق، ولا نهن في مواقف الصدق، ولا نضعف إذا دعانا داعي القوة.

إذا أشعرنا أنفسنا هذا القدر من المزايا الحية استطعنا أن يواجه بعضنا بعضاً بحقائقنا، وأن نتبادل الصدق في جميع ما نتعامل، وأن نجرؤ على الصراحة في أدق المواقف المحرجة..

استطعنا أن نفي صاحب الحق حقه.. فلا نُهين الضعيف، أو نستغل عجزه، ولا نُجامل القوي أو نُداهن مركزه.

تلك خِلال الأمم التي صدقت نواياها للعمل المنتج في الحياة، ووطَّدت العزم على بلوغ أهدافها البعيدة فيها فإذا راق لنا أن نتابعها..

فدعونا.. نمشِ!!

لنُعِدَّهم.. إعداداً فنياً..!

دعونا نمشِ في جمال وتنسيق وفن.. كما نمشي في علم، وقوة، وعقل!!

إننا إذا خدمنا نهضتنا كما –نؤمل– بعلومنا، وعقولنا، وقوتنا فليس من حقنا أن نُهمل في هذه الخدمة نواحي الفن، والتنسيق والجمال.

إن الحياة في عهود ما قبل التاريخ عرفت الفن واستهواها الجمال قبل أن تعرف العقل وتسترشده في مجالي الإنتاج والعمل.. فقد لذَّت لها زينة السماء، وإشعاعات الكواكب، وانتشار الغيوم، وسطوع البدر، ووهج الشمس.. لذَّ لها كل ذلك واستهواها جماله قبل أن يسترعي انتباهها كشف ما فيها من حقائق، وتفسير ما يحيطها من علوم.

والإنسان بفطرته فنان قبل أن يكون عالماً يستعذب زقزقة العصافير، وهديل الحمام، وخرير المياه، وأناقة الروض، وجمال الزهور.. قبل أن يستعذب البحث في كنهها، والتعمُّق في أسرارها.

ولا يقولنَّ قائل إن هواية الفن ترف لا لزوم له في أُمة تتوثَّب للأعمال الجدِّية، وإن استرواح الجمال كماليات يتشاغل بها الفارغون.. فذلك ضيق في الذهن لا يتسع لدراسة الحقائق في إمعان ودقة.

إن الأُمة التي ينشأ أفرادها من طفولتهم على تذوق الفن في غرفة رشيقة، وخزانة مرتبة، وبيت جميل، وشارع نظيف، ومدرسة منسَّقة وحديقة يفوح عبيرها، وميادين تأخذ العين مناظرها سوف تعرف في مستقبل أيامها كيف

تتذوّق الحقائق، وتفهم دقائقها، وتعرف كيف تُهذِّب طبائعها وتُرقِّق مشاعرها!!

وإن الأُمة التي تُعلِّم أبناءها كيف يتذوقون الفن في قصيدة عامرة، ولوحة ناطقة، وجلسة رائعة، ونزهة شائقة.. تستطيع أن تُهيِّئهم للسموِّ الروحي، والميزة العقلية.. وتربي فيهم ملكة الفهم والنقد.

إذا أعددنا أبناءنا إعداداً فنياً.. هذَّبنا طباعهم، وهيَّأناهم لتعشُّق الجمال في أعلى صوره، وعلّمناهم كيف يحيون حياة لها سعادتها ولذتها.

كان النبي صلى الله عليه وسلم جميلاً عندما أحب الجمال، وفرض النظافة والوضوء، وسنَّ السِّواك والتطيُّب، والاكتحال، وشدَّد النكير على النجاسات بأنواعها، وأوصى بالزينة عند كل مسجد، وعيَّن الأعياد، وقرَّر لها الثياب النظيفة البيضاء!!

ولا تُعنى أُمة بأمثال هذه الخِلال إلاّ إذا رقّت مشاعرها، ودقّت أحاسيسها، واستعذبت الجمال الفني في كل رشيق منسق، واستوحت الحب السامي من مظاهر الحياة الرفيعة.

تعالوا ندرس حياة الأجلاف من أصحاب العواطف الغليظة، والمشاعر الجامدة، والأذهان الضيقة.. لنعرف لون الحياة النابضة في أفئدتهم، ونستقصي مدى تقدُّمهم في فن العيش السعيد.

إننا سوف لا نظفر بينهم بفكرة عالية تتعشَّق الخير، وطبع مهذَّب يأنس بالتلطُّف، ومشاعر رقيقة تميل لودِّ الناس وحبهم، وتعطف على أمانيهم..

ذلك لأن الكبد الغليظة لا تنبض بعطف، ولا تهفو إلى خير على عكس الفنان الذي دقّت أحاسيسه، واستهوى الفن مشاعره فنشأ مفتوناً بالجمال والخير.

ورجال العدل، وأصحاب البرِّ بالناس، والذين يؤثرون على أنفسهم، والمشفقون في المصائب، والمحسنون.. كل أولئك دقّت أحاسيسهم فجاشت بالبِر، وفاضت بأعلى ما تفيض به نفس الفنان العالية، وروحه السامية.

إننا نقرأ اليوم في الصحف السيّارة أخبار المتسابقين في أعمال الخير، والمتنافسين في شتّى أنواعه، والمتبرعين بأملاكهم وأموالهم للمصالح العامة فيأخذنا العجب من تسابقهم، وتنافسهم في ميادين لا نقوى على مجاراتهم فيها.. ولكن عجبنا يبطل إذا علمنا أن طباعهم تهذبت من نعومة أظفارهم كما رقَّت أحاسيسهم وسمت أغراضهم، وفاضت أنفسهم بأجمل ما تفيض به النفوس العالية.

في العالم اليوم.. مَن يتبرَّع بدمه للمستشفيات، وفيهم مَن يتبرَّع بأحد أعضائه، أو قطعة من جسمه براً بالمصابين، ورحمة بالضعفاء والعاجزين، فأي فؤاد هذا الذي هفا إلى مثل هذا الخير؟؟ لا ريب أنه الفؤاد الحساس؛ فؤاد الفنان بما في الفن من سمو وجمال.

وفي العالم.. قصص فيها الكثير من التضحية.. فمنهم من ضحّى بنفسه في طوربيد ينسفه، أو صقيع يُبدده، أو مجاهل تبتلعه، أو شدائد تقضي عليه.. في سبيل الخدمة العامة –فأي شعور هذا الذي دفعه إلى هذه

المخاطر، وحبَّب إليه هذه المجازفات؟.. لا ريب أنه الشعور العالي شعور الفنان الذي يَنبض قلبه بالخير والجمال.

فدعونا نُربِّ أولادنا على تذوُّق الجمال، ونهذِّب طباعهم لتصفو أرواحهم وتدق أحاسيسهم.

دعونا نفتح عيونهم على بيوت نظيفة وغرف رشيقة، وأثاث جميل، ومناظر أخّاذة ومظاهر من كل لون جذّاب.

دعونا نفتح عيونهم على شوارِع نظيفة لامعة، وميادين متَّسعة، ومدارس رشيقة منظَّمة، وحدائق ذكية فوّاحة.

دعونا نُشعرهم بالجمال على أي حال، وفي كل حال لنغرس فيهم حبَّه، ونُعلمهم كيف يهفون إليه مهما تنوّعت صوره، واختلفت ألوانه.. فالجمال جمال الخِلال العالية.. من مروءة وشرف.. إلى شهامة وعدل.. إلى حب وإيثار.

دعونا نفهم أنه لا يكفي أن نتزوَّد لنهضتنا الجديدة بسلاح المعرفة التي تثقف أذهاننا، وتُمرِّن ملَكاتنا.. دون أن نُعنى بأرواحنا فنُعلِّمها كيف تصفو، وتحسُّ، وتتألم، وتهفو إلى الخير.

دعونا نُهذِّب طباعنا، ونصقل عواطفنا، ونُرهف أحاسيسنا لنشعر بشعور الغير، ونحس بإحساسه، ونتودد إليه في عطف وإخلاص.

دعونا نتعلم كيف نحب الخير للخير، ونتعشق الإحسان للإحسان، ونَصْبُ إلى الطيِّبات لا لما نرجو في عواقبها، أو نخشى من مغبَّتها.. ولكن

صبوة للطيِّب في ذاته.. وبذلك نعدُّ أنفسنا خير إعداد ظفر به غيرنا.. ونُهيِّئ أمتنا لأسمى خِلال تُشرِّفها أمام الله والتاريخ.

فلا نرتجل أفكارنا كما يتفق

دعونا نمشِ في نظام مقدَّر.. بُحثت مقدماته، ودُرست أبوابه، وعُرفت نتائجه في حدود مُحكَمة، وتفصيل دقيق.

إن صانع السيارة لم يكتفِ بما أدرك في حركة دواليبها.. فاندفع يدلج بها في الأرض دون أن يدرس ما يترتب على اندفاعها من أخطار. بل ألزم نفسه البحث في كل التفاصيل المحتملة ليضمن لها الأمان، ويحدِّد خطاها في ترتيب دقيق وصمامات مُحكَمة.

وعندما اتّسعت فكرتها لديه.. اتَّسع في دراستها.. فجعل لها حركة تضغطها في تؤدة، وأخرى تدفعها في خِفّة، وغيرها لغير ذلك ممّا تستدعيه المفاجآت، وتستلزمه المناسبات.

هذا النظام المقدَّر وليد الدراسات الدقيقة، استطاع أن يمنح أداتنا هذه الخطيرة –التي نُسمّيها السيارة– ميزة لا تُقاس بها ميزة، وأعطاها من الأهمية في حياتنا ما لا تُعادل به أهمية أخرى.. ولم يتيسر له كل ذلك لو لم يُعنَ بدراسة الفكرة في نظام ودقة، ويبحث في تفاصيلها كل احتمال مفاجئ.

هذا مثل بسيط اخترناه لما نحن بصدده، لاحتكاكه بحياتنا اليومية، ويمكنك إذا شئت أن تقيس عليه كل أداة لها قيمتها.. من الطائرة في الجو، والباخرة في البحر، إلى مصباح الكهرباء في البيت، وآلة الصناعة في المعمل!!

كل هذه الأدوات نُظِّم ترتيبها، ودُقِّقت تفاصيلها، وأُحكِمت صماماتها ليستفيد الإنسان بمنافعها دون أن يتعرض لما تنطوي عليه من أخطار هائلة.

كذلك شأن الحياة في الأرض. جميع مآتينا مُعرَّضة لألوان من الكوارث لا آخر لنهايتها إذا لم تنظم في نسق دقيق. تُدرس حقائقه في إمعان وتُرتَّب نتائجه في إحكام.

حتى إشباع جوعتك ممّا يغذي جسمك لا يمكن أن تُسمّيه غذاء إلاّ إذا نسَّقته في أداء منظَّم.. وإلاّ فهو الخطر المحقَّق؛ وحتى ممارسة أهوائك مهما كانت بريئة لا يمكن أن تتمتع ببراءتها إلاّ إذا نُظِّمت في ترتيب محكم وإلاّ فهي الوبال كل الوبال.

وإذا انتقلت من هذه الآماد المحدودة في حياتك إلى آفاقٍ أوسع وجدت أن الحياة في مختلف أطوارها ومتعدّد أجوائها لا تعدو هذه القاعدة بحال.. فيقدر ما تُعنى بتنظيم أمورك فيها وتنسيق أطرافها في ترتيب مُحكَم تظفر بأحلى أمانيك، وبقدر ما تُسلِّمها إلى الفوضى وتترك نفسك تمضي في خطاها سبهللا لا يحدُّها ترتيب ولا يسدِّدها إحكام، بقدر ما تتعرّض لأوخم النتائج.

كدت أن أضرب مثلاً في هذا بشخصية كبيرة معروفة بين رجالاتنا بالتزام الدقة في جميع مقدراتها، وهي شخصية لا أُريد أن أُسمّيها لأنني لا أخدم الأشخاص فيما أبحث بقدر ما أخدم البحث للبحث نفسه، وأكبر ظني بعد هذا أو قبله أنه ليس في بلادنا مَن يجهل هذه الشخصية الفذّة، فقد ألزم

صاحبها نفسه قاعدة التنظيم المنسَّق.. فهو لا يضع قدمه في خطوة حتى يتدبَّر شأنها، ويدرس تفصيلاتها، ويُرتِّب لكل تفصيل فيها باباً ولكل باب فيها درساً.

امتحنته الأيام بأقسى ما يُمتحن به عظيم.. ولكن كان يأبى إلاّ أن يكون الظافر في كل امتحان.. ذلك لأنه ما استعجل الأشياء قط، ولا أباحها الفرصة لتمضي في جداولها سبهللا كما اتفق.. بل كان يُحسن تقدير ما يُواجه ويعرف كيف يدرس تفصيلاته، ويرتب أبوابه، ويُنظم لكل باب فكرة.. في تنسيق محكم دقيق.

اصطنع هذا في خصوصيات بيته، وعموميات مركزه الاجتماعي والرسمي.. فعاش حياته ظافراً بأرقى ما يُواتي الظفر، ناجحاً بأسعد ما يهب النجاح.

دعونا نقارن هذا بآلاف غيره من الفوضويين الذين لا يدينون بنظام، ولا يخضعون لترتيب ولا يعنون في حياتهم إلاّ بما يتفق دون أن يدرسوا ما يخطون، أو يتدبَّروا ما يفعلون في رويَّة وإحكام.

إن مثل هذه المقارنة ترسم لنا الفرق الواضح بين حياة هانئة سعيدة، وأخرى مرتبكة تتقاذفها الأنواء وتعصف بها الأعاصير.

وحياة الأُمم في جميع أدوار التاريخ لا تختلف عن حياة الأفراد في هذا الصدد فهي ظافرة سعيدة هانئة ما تدبَّرت شؤونها، ودرست مقدراتها، خطوة فخطوة، ونسَّقت أعمالها في أنظمة مُحكمة، وترتيبات عُنيت ببحثها

ودققت دراستها، وصاغتها في أساليب محبوكة لا ينالها النشاز، ولا يعبث بها الارتباك.

وهي إلى جانب هذا مضطربة ما استعصت على النظام، وتركت أموره فوضى لا تُقيّدها خطط مدروسة، ولا ترتيبات مرسومة.

لا نريد أن نقول إن الأمم المنظَّمة لا يشوبها زلل قط.. لكن مثل هذا الزلل قد لا يُسيئها ما تُسيئها الفوضى، وعصيان النظام.. وأكبر ظني أن مثل هذا الزلل قد لا يصادفها إلاّ مُنظَّماً قابلاً للدراسة والعلاج.

فدعونا نُنظم أمورنا ككل أُمة لا تجهل واجبها، وتعرف ما عليها من تبعات لتحيا محترمة بين أمثالها.

دعونا نُنظم شؤوننا في التجارة فلا يضطرب استيرادنا أو تصديرنا.. نستوحي أسواقنا، ونعرف حاجتها إلى كل لون وصنف.. فلا نغمرها بالفائض المتزاحم، ولا نعجز دون كفايتها فنحرمها ضرورياتها اللازمة.

دعونا ننظم صناعتنا فلا نبيح لها أن تُهاجم في عقر دارها، وأن تُزاحمها واردات الأجنبي بدون قيد فتشل حركتها، وتُعطل نموها.. لا بد لها من تنظيم يحميها، ويشجع خطاها في حدود مرسومة، وكادر مبوب!!

دعونا نُنظِّم شركاتنا فنُوزِّع خطواتها في ترتيب مُحكَم، ونضبط قيودها وسجلاتها على أصول دقيقة لا يشوبها تشويش.. ليأمن المساهمون عواقب الفشل، ويطمئنوا إلى حقوقهم فيها.

دعونا نُنظِّم أمورنا في البيت، والمدرسة، والشارع، والدكان.. لنألَف النظام في جميع ما نتناول من أعمال، ونعرف كيف نُرتب أوقاتنا في دقة وإحكام في أفكارنا فلا نرتجلها كما يتفق، ولا نرسم تصميماً حتى نشبعه فحصاً، ونوسعه بحثاً ودراسة.

يظن بعض الجاحدين أنه ليس في طبيعة الشرقيين ما يساعد على تقدُّمهم في مجالات الحياة، وليس في مثل هذا الهراء ما يستحق التفنيد والرد؛ فللشرق مزاياه المكتسبة من بيئته وطبيعة أرضه، وللغربي مثلها.. وعند كل من الفريقين الاستعداد لما يؤهله للحياة الصحيحة إذا عقد العزم عليها.

إذا كان الغربيون قد عُنوا قبلنا بتنظيم مقدراتهم في أوضاع محكمة فلا يكلفنا أن نحذو حذوهم إلاّ أن نُعنى بتنشئة أجيالنا الجديدة على نسق يحبب إليهم النظام في مختلف أنواعه، ويعلّمهم كيف يبحثون أوضاعهم، ويدرسون تفاصيلها، ويحكمون ترتيبها في روية ودقة لا يشوبها ارتجال.

إننا بذلك نستطيع أن نثبت أن أهليَّتنا للنجاح في الحياة لا تقل بحال عن أهليَّة كل متمدن في الأرض.

فدعونا.. نمشِ..

فلانفرض ما لا يُساير طبائع البشر

لا نُسمى نظاميين ونحن نقرر مقدراتنا في دساتير مفصَّلة إلاّ إذا احترمنا ما قرَّرنا، وقدَّرنا قيمة ما نظَّمنا.. في نفوس عالية تفهم الواجب، وتعرف قيمته بين الفروض!!

يذكرون عن بعض البلاد المتمدنة أن صاحب السيارة قد يخطئ في غياب الجندي المكلّف بالمرور، وقد يصدم مصباحاً في الشارع، أو يُخالف أنظمة المرور بأي شكل من الأشكال، فيأبى إلاّ أن يترك عنوانه للجندي ليستوفي رجال النظام منه جزاء ما أخطأ حسب ما قرَّره النظام.

ويذكرون أن أحد كبار الدولة في أُمة من الأُمم الراقية عندما أعلمه جندي المرور أن سرعة سيارته في الشارع تخطت الرقم المقرر، وأن عليه أن يصحبه في سيارته إلى أقرب مركز للبوليس أجاب طلب الجندي في احترام، ومضى في صحبته إلى مركز البوليس، فلمّا عرفه الضابط الموكَّل بالمركز استحيى من مقامه المرموق في الأُمة، وأراد أن يستسمحه، فقال الكبير)) :إن خضوعي لأنظمة بلادي أمر لازم، ولا يجوز أن تستسمحني فيه.. فتفضل بالجلوس إلى مكتبك مشكوراً، وامضِ في تنفيذ ما أنت مأمور به للنظام.((

بمثل هذه الروح النظامية يتعامل المهذَّبون في كل أقطار الأرض الراقية، وبمثل هذا الأسلوب يتأدَّب أهل المراكز الرفيعة في بلاد المتمدِّنين.

ولكننا لا يجب أن نغفل أن أنظمتهم نفسها تُعاون على يسر تنفيذها، وتُساعد على سهولة تطبيقها.. ذلك لأنها لم تشرَّع إلاّ بعد أن درستها مئات

الأفكار، وعرَّضتها لمئات التجارب، فاستصفت من قواعدها ما يثبت أمام الامتحان، واستبعدت منها ما لا يساير طبائع البشر، ولا يُطابق استعدادهم.

وكثيراً ما يُراعي المشرّعون ألاّ يتيحوا للنظام أن يستهين بكرامة المخالفين، أو يُذل عزَّتهم.. فيستثيرون عنادهم بما يشرِّعون، ويعلِّمونهم عصيانه.. بل يحاولون تيسيره ما استطاعوا، ليساعدوا على احترامه، ويُعينوا على طاعة بنوده كما فعل القرآن في عهد نزوله.

وأكثر هذه الأنظمة الراقية لا تشتط فيما تجازي، ولا تُبالغ فيما تُعاقب.. بل يكفيها ردع المخالفين في أساليب تُغريهم بمسايرتها والتحمس لتطبيقها.. فإذا استطاع الشرقيُّون أن يُهيِّئوا لهم نظماً تستوعب مناحي حياتهم في جميع ألوانها، وأن يدرسوا بنود هذه النظم دراسة راقية على أحدث ما أنتجته علوم النفس، وإذا استطاعوا أن يستوحوا فيما ينظِّمون جميع الملابسات الشخصية، والظروف الطبيعية.. لتنتهي نظمهم إلى مستوى لا يتنافى مع تجارب الأمة، ومرانها الطويل، وإذا استطاعوا أن يتوخُّوا فيما يُنظِّمون حقائق العدل الصحيحة، ومعاني الرأفة والرحمة.. فإنهم يهيئون بذلك لاحترام النظم، ويعلمون الناس في بلادهم كيف يقدِّسونها، ويبجِّلون بنودها.

ويكمل تقديس الأنظمة كل الكمال عندما نُعنى في بيوتنا ومدارسنا بصقل أرواحنا، وتهذيبها تهذيباً عالياً يُميِّز الحقائق، ويعطيها قدرها ويسمو بنا عن

التدني إلى منازل الأجلاف الذين يتنكرون للواجبات، ولا يمنحونها حقوقها عندهم، ويزوغون أمام الحقائق كما تزوغ الثعالب في مواطن الجد.

ويذكرني تقديس الواجب في هذا السياق بما ينقله السائحون عن بعض البلاد الراقية.. فهم يذكرون أن منها من استطاع أن يستغني عن موزِّعي الصحف، وباعة الكتب، (وكمسارية) التذاكر.. لأنهم قنعوا بترفُّع جمهورهم الراقي عن الاختلاس، وجربوا عنايته بالأخلاق العالية، وحفاوته بالواجبات المفروضة.. فاتكلوا على ما تخلَّق، وعرضوا بضائعهم عليه دون أن يراقبها موظف.. تركوا له صندوق الحسابات يقذف بالنقود من فجوته، وأطلقوا يده في البضاعة يأخذ حقوقه منها دون أن يستغل أو يبيح لنفسه الاختلاس أو السرقة.

ويذكرون أن تجارب هؤلاء الباعة طمأنهم على حقوقهم.. فهم يحصون حصَّالتهم في كل مساء، ويقابلونها بقيمة ما عرضوا من البضائع فلا يجدون فرقاً يدل على السرقة أو الاختلاس.

لا أدري أية نقاوة بلغت بهذه الضمائر التي باتت تحسب نفسها في هذه الدِّقة التي لا تبلغ إليها دقة المراقبين مهما برعوا في مراقبتهم.

إننا في بلاد الشرق لا نستطيع أن نحلم بمثل هذه النتائج رغم يقظتنا في تجنيد المفتشين، والمراقبين، والمدقِّقين والمتجسِّسين فكيف ظفر بها أناس ألغوا الرقابة والحراسة؟

أتكون عِلَّتنا فيما نُجنِّد من حراس، ومراقبين، ومفتِّشين؟ فنكون بذلك قد تداوينا بالتي هي الداء، أم أننا بلغنا من براعة الحياة حداً لا يُدانى؟

الواقع أنهم عنوا بإحياء الضمائر في بلادهم، فنشأ ناشئهم وهو يحسُّ بأن كرامته أرفع من أن تتدنّ إلى الحيل والغش، وعنوا ببثِّ الثقة في النفوس فجبل الرجل على فضائل لا يُهاود فيها، ويسمو بأخلاقه أن يراقبه عليها غير ضميره النقي الصافي.

دعك من ضمير السياسة التي نشاهد ختلها، ونسمع من أحاديث زيفها ما لا يتفق مع سمو التربية.. دعك من هذا فإن للسياسيين في غالبية تلك الأُمم فلسفة لها لونها الخاص.. إنهم يؤمنون بمنفعة بلادهم إيماناً يجرئهم على الكفر بأكثر المبادئ الإنسانية العالية.. وهم في سبيل مصالحها لا يتورعون عن نسيان معاني الأخلاق.

وإني لا أذهب كثيراً مذهب من يلحاهم على ما يفعلون.. لأن الخطأ في رأيي في مثل هذه المواطن هو خطأ الضعيف الذي أغراهم بنفسه كما تُغرى بغاث الطير بأكلها.. ولو تنسَّرت تنسر البواشق والصقور لفرضت احترامها على الصائدين.

لا نريد أن نحفل كثيراً بأخلاق النفعيين من ساسة الأمم في أوروبا.. فقد أُعدّوا في بلادهم ليكونوا جزارين، والجزار في كل بيئة لا ينسى وظائفه الطبيعية مهما سمت به بيئته، ومعتنقو مذهب حرق الجثث لا تدمع أعينهم مهما تهذَّبت طباعهم أو رقّت أحاسيسهم!!

أقول إننا لا نريد أن نحفل كثيراً في بحثنا هذا إلاّ بالأوساط الشعبية التي تهذَّبت ضمائرها، وسمت بها أخلاقها حتى استطاعت أن تجرِّد من نفوسها رقيباً عليها، واستكبرت أن تُساق بالعصا، وتُحاسب عن طريق الأوامر والنواهي.

إننا في الشرق من أحوج الناس إلى التربية الصحيحة التي تسمو بنفوسنا إلى أرفع مستوى، وتُحيي ضمائرنا حياة نحسُّ فيها بأدق معاني المروءة والشرف.

وإننا –جماعة المسلمين في كل بلد من هذا الشرق الواسع– مسؤولون أمام مبادئ سيد المرسلين بأشد ما يُسأل المكلَّف.. فقد بُعث فينا ليتمم مكارم الأخلاق، وبُعث فينا لنكون خير أُمة أُخرجت للناس، وبُعث فينا لتكون لنا بعد الله ورسوله العزة في الأرض.

وقد ترك لنا من أخبار سيرته، وقصص شمائله ما لو استقصيناه لاستطعنا أن نُباهي به أمام أرفع الأخلاق في أرقى البلاد، وأفضل الشمائل في أسمى الأُمم.

ما بالنا نسينا تراثه الممتاز، ومبادئه التي لا يسمو إليها متمدِّن مهما بلغ شأوه في التربية، واستأنفنا النكوص على أعقابنا، حتى هوينا إلى دركات لا تليق بنسبتنا إلى ذلك المشرّع العظيم، ولا تتفق مع العزة والسمو الذي أرادنا له؟

إنها بلا ريب غلطة الأجيال التي ساد ظلامها أرجاء الشرق بعد أن فقدنا نبيَّنا صلوات الله عليه ورجال صحابته من الصفوة المختارة.

وإنه إهمال الغافلين الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فهل استيقظنا اليوم لنعرف الله كما يجب أن نعرفه، ونفهم أنفسنا كما يجب أن نفهمها؟

لا شك أن تباشير الصباح قد لمع وميضها، وأننا منذ الليلة على الطريق.. فحثّوا ركابكم أيّها القوم.

ودعونا.. نمشِ!!

هذا التفكك.. مصدر مآسينا

في تاريخ الإسلام السياسي مواقف دقيقة كانت لها خطورتها بالنسبة لكيانه العام.. ونحن اليوم في موقف جديد من مثل هذا اللون له دقته وخطورته، التي لا تقل بحال عن خطورة أمثاله في تاريخ الإسلام.

نواجه من تكالب الأمم علينا، وتعاونهم على استرقاقنا، واستنزاف دمائنا ما لا يجوز إغفاله بين ما أُغفل من أحداث التاريخ العظيمة، وأهوالها الفادحة.

فهل تدبَّرنا –معشر المسلمين– هذه الحقيقة؟ وهل أعددنا لها ما يجب أن نعدَّه لأمثالها؟

إن الأُمم المتكالبة وجدت ميادين العمل أمامها واسعة، فلم تتلكأ في اختيار السبيل!! ووجدت الفرص لاسترقاقنا مادياً أو معنوياً سانحة بين يديها فلم تتوانَ في انتهازها، وتلك سُنَّة المجدودين، العاملين لنجاحهم فيها!!

لعلّ هؤلاء المتكالبين والظالمين لا يستحقّون اللوم أكثر ممّا نستحقّه!! إنهم لم يكونوا أكثر من أنانيين يمشون إلى أهدافهم على أشلاء غيرهم، وليس في هذا جديد؛ فالإنسان –مع كل أسف– أناني بطبعه، انتهازي بجبلته، لا يُستثنى من ذلك إلاّ نبيٌّ مُصطفى، أو تقيٌّ مُجتبى.. وقد قضى عهد النبوة، وأصبحنا في زمن لا نجد الأتقياء إلاّ فيما ترويه أقاصيص الكتب.

إذن فلا لوم في الأمر إلاّ أن نكون نحن الملومين! إننا استمرأنا حياة التأخر من أجيال طال عهدها، فترك هذا أثره في دمائنا وأفكارنا، وهيّأنا لأسوأ ما تتهيّأ له الأُمم من معاني الصَغار والهوان.

إنه لا يزال يعيش بين ظهرانينا من بقايا عصور التأخّر مَن يظن الفرنجة خدماً يُعدون وسائل العيش في الحياة من مأكل، وملبس، ومركب.. ثم يُقدمونه إلينا لننعم بما قدّموا دون أن نتكلّف في سبيله نصباً!!

أليس في هذا ما يشهد على مقدار ما تركه التأخر من رواسب في أفكارنا؟

إنه لا يزال يعيش بيننا من يقول)) :اللي يطيح من السما تستلقاه الأرض ((ومن يقول)) :إذا طاحت السما.. ما يلحقني منها إلاّ قد رأسي.((

أليس في هذا أوضح معاني الانفرادية! وأبلغ شواهد التفكُّك؟.. لماذا يخشى وقوع السماء ما دام لا يعنيه إلاّ مقاس رأسه منها.. ولا علاقة له بالمجموع؟ ولماذا يخشى وقوعها ما دامت الأرض ستتلقاه ولا علاقة له بالأرض؟ إنها ليست في رأيه أرضاً تابعة له، وليس فيها ما يهمه من شؤونها!!

هذه الانفرادية، وهذا التفكُّك مصدر مآسينا في الحياة.. وقد ترك رواسبه في دمائنا، وسوف لا يعوزك الدليل عليه، لأنك تستطيع أن تلمسه واضحاً في بقايا عصورنا السابقة ممن لا يزالون أحياء بين ظهرانينا!

فأي لوم بعد هذا يستحقه الأجنبي الذي وجد سبيله مُمهَّداً على أشلاء أُمم تفكَّكت عناصرها، وذاب كيانها، وخمدت مشاعرها، وأصبح الفرد فيها لا يحسُّ بالحياة إلاّ في حدوده الضيقة، ولا يُعنى من أرضه إلاّ بقدر ما يسعه

من مساحتها، ولا يمدُّ رجله إلى أكثر من فراشه، ولا تتطلَّع عيناه إلى أبعد ممّا يمتد بصره، ولا تبعد أهدافه إلى أبعد من نعيمه الذي ييسره له الفرنجي الخادم؟

تركنا من نسمّيهم فرنجة يخدموننا في طعامنا، فأصبحت أكثر بلادنا في الشرق الأوسط عالة على ما يطعمون، ويخدموننا في ملبسنا فأصبحت أغلبية بلادنا في الشرق الأوسط لا تملك الإبرة إلاّ إذا قدمها إليها هذا الفرنجي.

تركنا مَن نسمّيهم فرنجة يخدموننا في كل قطعة من أثاث بيوتنا، وأوانيها وآلات دكاكيننا، ومصانعنا –إذا كانت لدينا مصانع ذات قيمة– فلا نملك لأنفسنا قطرة الحبر، أو ريشة القلم، أو قطعة الورق، أو عود الكبريت، إلاّ ما تصدَّق به علينا هؤلاء الذين سمّيناهم خدماً!!.. حتى بيوت الصناعة التي قد نجرؤ على المباهاة بها لا نملك من أدواتها ما يساعدنا على العمل فيها.. إلاّ إذا تفضل أولئك الخدم فأتحفونا به، وقبضوا أثمانه فاحشة من دمائنا.

ما أروعِ هؤلاء الخدم، وما أعجب أفضالهم علينا، وما أشقانا نحن جماعة الأسياد بسيادتنا التي تتمتَّع بهذا الضعف المهين، والحاجة المريرة!!

دعونا يا قوم نفهم الحقائق على وجوهها الصحيحة، وكفانا ما فرَّطنا في جنب الله، وحقوق بلادنا. دعونا نفهم أن موقفنا اليوم أشد حاجة إلى ما يكون من التعاون المشترك، والتعاضد المُحكَم، وجمع الصفوف على العمل

المنتج الذي يُثبت وجودنا، ويُشعرنا بحقيقة موقفنا من الأُمم الطالعة، المتكالبة على تمزيقنا، وامتصاص دمائنا.

إن ساستنا يشعرون اليوم بالأرض التي تتزلزل تحت أقدامنا، والعاديات التي تأخذ منافذ الأرض علينا.. فيتيقظون من هول الفواجع، ويُبادرون إلى أجراس الخطر.. فيهزونها في قوة المستميت.

دعونا نستجب إلى ما يُنادون.. دعونا نطرد النوم من أجفاننا والعناكب عن عقولنا.. دعونا ندبّ على أقدامنا بأقوى ما تدبُّ الكواسر بعد طول احتباس.. دعونا نزأرْ بأصواتنا كأقوى ما تزأر الليوث: لبَّيكم قادتنا.. لبَّيكم!!

دعونا ندرس كل مقومات التعاون بيننا لنتبادل منافعها في إخلاص وعدل..

في أقطارنا ما ينتج الحديد، وفيها ما ينتج المعادن النفيسة، وفيها ما ينتج الذهب الأسود والأحمر.. كما أن فيها ما ينتج الأخشاب، والمطاط والأقطان، والحرائر، والأصواف، وأكثر المواد المستقطرة، والأنواع المستحضرة، كما أن فيها من اتَّسعت ثقافته، وطالت تجاربه، وفيها مَن كثر عدده.. فإذا تبادلت شعوبنا كل هذه المقوِّمات في تدبير محكم، وإخلاص صحيح.. استطعنا أن نمهد ليقظة جديدة موحَّدة الأهداف واضحة المقاصد.

إن جامعتنا لا يجمعها الدِّين فقط، ولا الدِّين واللُّغة.. إنما يجمعها بعد هذين ما لا يقلُّ شأناً عنهما، وهو اشتراكنا في الآلام.

إن المظلوم يا قومي أخو المظلوم، وخدينه، وحبيبه، وليس في نظام الحياة آصرة تجمع بين الناس أشد من آصرة الألم.. فإذا أُضيف إلى هذا الألم المشترك جامع الدِّين، وجامع اللُّغة، فقد استوت لأقطارنا على تعدُّد مآربها رابطة.. فما بالنا ننسى حقائق هذه المعاني، ونسدر في غفلتنا مع الجاهلين؟

إن فرصتنا اليوم بعد أن تيقَّظ ساستنا لواجبهم نحونا لا تعادلها فرصة، وإن ما قاسينا من لأواء تنازعنا طوال أجيالنا المظلمة لا تُضاهيه تجربة، فدعونا ننتفع بما جرَّبنا.. ودعونا نقدر هذا الصراخ الذائب فنلمُّ شعثنا، ونمضي على صوت الصارخين.

إن أخشى ما يخشاه خصومنا في أطراف الأرض أن نتجمع؛ لأنهم يعلمون أن ظفرهم بنا رهين شتاتنا، وأن آخر عهدنا بالهوان أمامهم يوم نقوى على الشعث وتوحيد الصفوف في نيات صادقة وضمائر نقية، واحترام متبادل!! لا يستغل فيه بعضنا البعض.

وما أروع الحكيم الذي روى أسطورة الأثوار الثلاثة وقال فيها: إن الأسد عندما صادفهم حاول أن يفتك بهم أو ببعضهم فلم يسعفه النجاح حتى استطاع أن يُفرِّق بينهم.

يقول الحكيم في قصتهم: إن الأسد بدأ اتصاله بالثور الأسود والأحمر وقال إن لونكما لا يبعد كثيراً عن لوني، ولهذا فإني لا أخشى أن يعرف

الصياد جنتنا لولا زميلكما الأبيض الذي يفضحنا بلونه، فلو سمحتم لي بالقضاء عليه لأمنت وإياكم غائلة العدوان!!

فلما اقتنع الثوران برأي الأسد سمحا له أن يفتك بزميلهما.. فكانت الضربة الأولى نحو كيان الأثوار في الأجمة، وجاءت الضربة الثانية عندما مال الأسد على الثور الأسود وحده، وأقنعه بأنه لا يزال يخشى الصيادين لأن لون زميله الأحمر فاضح، يلفت أنظارهم. فقنع الثور بما ذكر الأسد، وأباح له أن يفتك بزميله ليعيش بعد ذلك مع الأسد آمناً.

وما قضى الأسد على الثور الثاني حتى أيقن أن الثور الثالث قد بات رهين رحمته، وأنه لا يقوى بعد زملائه على مقاومته، فالتفت إليه يستأذنه في قتله فقال الثور: أجل. وثق أنني لم أُقتل اليوم فقط، بل قُتلت يوم قُتِل الثور الأبيض!!

إنها أسطورة تحمل كل معاني الجد الصائبة، وإنها قصة تمثل أدق ما يمثِّله الواقع. فهل نتنازع بعد اليوم يا قومنا؟ وهل نبيح للمغتالين أن يغتالوا ضحاياهم منا على مرأى ومسمع من أبصارنا؟

أم نحن منذ اليوم جادون؟ لا نبيح للعبث أن يتخلَّل صفوفنا، وللانقسام أن يتطرَّق إلى جماعتنا؟

دعونا نؤكِّد هذا بشواهده الواضحة..

وأخيراً..

دعونا.. نمشِ!!

إنه سيترك البلاوي لأصحابها

دعونا نمشِ في نشاط.. فحاجتنا إلى النشاط في أفكارنا، وأجسامنا، وأعمالنا لا تُقاس بها حاجة في أكثر مناحي حياتنا الجديدة.

أترى هذا الشاب القادم على كثب منك؟.. أترى أقدامه كيف تزحف في تراخٍ كما تزحف أقدام المُسن المُرهق؟ أترى قامته المنحنية ورأسه المُطرق وهامته المتخاذلة؟

إنه الفتور بمعانيه الواضحة، وإنه الانحلال الصحي الذي لا يتَّفق مع سن الفتوَّة وتطوُّر الشباب، وإنه الانحلال الاجتماعي الذي لا يتَّفق مع أحوال الأُمم التي تنوي مسايرة الحياة، والاندفاع مع صفوفها الأولى.

إن الشباب الناهض يمتاز في الحياة بما يتدفَّق في شراينه من دماء قوية تبدو آثارها واضحة في كيانه النشيط، وقامته المنتصبة، ورأسه المرفوعة عالياً، وخطواته الناطقة بعزم الشباب وقوَّته.

إنهم يعنون في بلاد العالم المتمدن بمظاهر الفُتُوَّة. التي توحي إلى نفس الشباب معاني العزم، وتدربه على مواجهة الصعاب في هامة عالية، وهمّة شامخة، ودم فوّار!

أما هذا الخطو المتخاذل في أعصاب محلولة، وكيان متهالك، وحركات متهافتة، فذلك لون من ألوان الضعف يُسيء إلى معنوية الشباب، ويُعطي عنه فكرة لا تتَّفق مع فتوَّته القوية، وعزمه الناطق!!

فدعونا ننشط في أجسامنا ليثبت جماعة الشباب فينا حيويَّتهم الدافقة، واستعدادهم الحي لمزاحمة أمثالهم في معترك الحياة الداوي!

ودعونا إلى جانب هذا ننشط في أعمالنا.. فقد مضت العهود التي كان يكفينا فيها الإنتاج السنوي من مواسم الحج لنعبث بعدها لاهين بالترَّهات، والرحلات بين الضواحي والبساتين.. نُنفق عن سعة، ونقضي أيامنا، ولياليناس لاعبين في براءة الأطفال، وسذاجتهم!!

مضت العهود التي كان مبلغ همنا فيها أن نستعطي المحسنين من أثرياء الحجاج، أو نحتال لنظفر باسم الكعبة والحرم على أكبر قسط من الأرباح التي تُعين بلادنا على شراء معظم ضرورياتها من الأسواق الخارجية.. وحلَّت محلَّها عهود تفتَّحت فيها أمامنا الآفاق، وأصبحنا نُدرك أن من العار أن نظل مستوردين؛ وأن نبذل مياه وجوهنا في ميادين العمل الرخيص.. لنجمع أوفر ما يمكن جمعه من الأموال، ونقدمه صاغرين إلى البلد المصدر الذي يمنحنا ضروريات العيش، ولوازم الحياة، ويُيسّر لنا أنواع الترف، وأنواع العبث ويساعدنا على قضاء أيامنا بعد المواسم في مرح الأطفال ولعبهم!!

الاحتمالات لا تؤدِّي أمام عقله إلى نجاح مضمون.. لا لنقصان في الجرأة عنده فقط، بل لأن خياله لا يبعد إلى أكثر ممّا يقع عليه نظره.

إن أمامه في بيئته المحدودة عشرات من أنواع الصناعات ألف رؤيتها، وفهم مدى أرباحها، وليس فيها ما يُغريه بمزاولة واحدة منها، لأن المشاهد من نتائجها لا يُغري باقتحامها فماذا يصنع؟ إنه سيترك (البلاوي) لأصحابها ويقنع بانزوائه حتى تصادفه مناسبة تُرضيه.

هو ذا خمود الذهن الذي نُعانيه في مقدراتنا.. ولو درَّبنا عقولنا على النشاط، وعلَّمناها كيف تبعد في الخيال لاستطاع المفكِّر منا أن يتخطّى بخياله جميع ما عرف في بيئته من صناعات، وأبى إلاّ أن يبتكر لنفسه جديداً لم تتناوله الأيدي في بلاده بعد!!

يستطيع العقل النشيط أن يخترع لنفسه فناً صناعياً لم تتناوله الأيدي.. وأمامه في ذلك ألوان لا يُحصيها عدد، لا تزال شائعة في مختلف أقطار العالم المتمدِّن، لا تُكلِّفه مزاولتها إلاّ أن يُنشط فكرة فيتبعها في مظانها من أركان الأرض، ويدرس حقائقها في إمعان وتبصُّر، أو يقاول بعض رجالها لينشئوا أركانها حيث يريد.

لا يعجزنا أمام هذه المحاولات إلاّ أن نعطيها حقوقها من العناية، ونوليها تفكيراً نشيطاً لا يعثر خياله فيما ورثنا من رواسب الأجيال الماضية!!

إنني لا أريد أن أُطالب في خطواتنا الجديدة بمخترعات لم يهتدِ إليها عقل البشر إلى اليوم لنسجِّلها بأسمائنا.. فتلك وثبة أخشى أن تكون أوسع ممّا تبلغه جهودنا في حركتنا الجديدة اليوم.. وذلك مدى لا ننكر أنه في حاجة إلى وقت أطول ممّا مشينا في نهضتنا.. فلنمرِّن أنفسنا على مزاولة ما سبقتنا

إليه المصانع في العالم المتمدِّن كتوطئة لتدريب عقولنا على العمل، وتمهيداً لتثقيفها صناعياً.. لتقوى في أحد الأيام القريبة على الاستنتاج، وتجد من كفاءتها ما يؤهِّلها للاستقلال، وابتكار الجديد في ميادين العمل الواسعة.

إذن فنحن في حاجة إلى تنشيط عقولنا، كما نحن في حاجة إلى النشاط في أعمالنا وأجسامنا لنُثبت أهليَّتنا للعيش في هذا المعترك الصاخب في أقطار الأرض.. فاحزموا أمركم يا قوم..

ودعونا.. نمشِ!!

فهرس المحتويات